زياد خداش

@ketab_n
22.5.2015

أن تقعي أرضاً ويكون اسمك

أماني

تأملات ، نصوص ، قصص

@ketab_n

الأهلية

زياد خداش

أن تقعي أرضاً ويكون اسمك

أماني

تأملات ، نصوص ، قصص

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة ، بناية 34

◆

أن تقعي أرضاً ويكون اسمك أماني
(تأملات، نصوص، قصص)
زياد خداش

الطبعة الأولى 2013
حقوق الطبع محفوظة
◆

تصميم الغلاف: ديمو برس

الصف الضوئي: إيمان زكريا، عمان هاتف: 097/534156

All rights reserved.*No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة *. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر .*

Twitter: @ketab_n

أحلام البر الوحشية

أنظرُ إليها؛ فأراها لأول مرة! مَنْ هذه المرأة البيضاء الممتلئة التي تجلس على سريري نصف عارية؟. أنظر إليه كأني لا أعرفه أبداً، من هذا الرجل الأسمر الذي يستلقي على الجانب الآخر من سريري بوجه غير حليق ومنامة شتوية مقلّمة؟ قلت لها: إنني يا صديقتي، متعبٌ ومريضٌ وأتخيّل أشياءَ مرعبةً ومخجلةً، أراني أطعن أبي بسكين، أفقأ عينَي جدي بمخرز، أحرق مكتبة المدينة العامة، أضاجع دجاجة الجيران السمينة... آه كم أنا بحاجةٍ إلى نومٍ الليلة، تعتريني هواجس غير مفهومة، تسري في دمي رغبات شيطانية وأحلام يقظة محرّمة. أطلقت تنهيدةً قصيرةً، نهضت عن السرير حافية القدمين، كانت مترعةً بأرداف فضية ونهدين ياقوتيين، مشت باتجاه المطبخ، تحك ثديها الأيسر، تتعثر بالمناضد والملاءات والأحذية، غابت طويلاً في المطبخ، كنت أظنها ذهبت تجهز لنا ما نأكله، فإذ بها تعود بجرحٍ مفتوحٍ في بطنها وابتسامةٍ ملساء في وجهها، تحمل في يدها اليسرى كأساً زجاجيةً كبيرةً مملوءةً بالدم، وفي يدها اليمنى مدية حادة ينسال منها الدم منداحاً على وجهَي نصلها العريض وحواف مقبضها الخشبي. ما زال يستلقي على السرير، كان ينظر إليّ ببرودٍ مقهورٍ أصفر، هذا الرجل

Twitter: @ketab_n

الأسمر، هذا الرجل ذو المنامة الشتوية المقلّمة، ماذا يفعل في غرفتي؟؟ اقترب مني زاحفاً على بطنه، ببطء مغوٍ كان يفك أزرار منامته، يمرر لسانه على حواف شفتيه، يطلق لهاثاً برياً لاهباً، دفن شفتيه في أمواج ثدييّ المتلاطمة الحارة، شرع فجأةً ينتحب بصوت عالٍ كطفل. انتزعتُ شفتيه من لحم صدري، أحنيتُ جسده على السرير برفق. رأتني أغمس رأس المدية الحارة في كأس الدم، أرسم على صدره وبطنه وفخذيه طيور سنونو مقتولة مرمية على شواطئ شريرة، مهجورة بلا موانئ، بلا مصطافين، ومقابر داثرة بلا معالم، ومنافض مصنوعة من جماجم رجال سمر البشر ذبحوا في حروب قديمة شرسة وألقيت جثثهم في العراء القاسي. قلت لها: ما زلت أغرق في مستنقع التماسيح، أمد يدي وأصرخ، ولا أحد يستجيب، أحياناً أرى أطيافاً تمشي على أطراف المستنقع تضحك أو تبكي أو تفعل شيئاً آخر. قلت له: أتعبتني معك أيها الرجل الأسمر لكني مع ذلك لن أتوقف عن حبك، لن أستطيع أن أتوقف أبداً أبداً، قلت لها: أسرعي يا صديقتي، أسرعي، لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك؛ فأنا متعب ومريض وأتخيل أشياء مرعبة ومخجلة، وقد أصل لحالة من الجنون تربك أصدقائي وتحرج أهلي. نهض عن السرير، مشى مترنحاً باتجاه المرحاض، غاب طويلاً، عاد زائغ النظرات، محطم الخطوات، يحمل كوباً صغيراً مملوءاً بقطرات ثقيلة من المنيّ الأبيض اللزج، وضع الكوب في يدي، أشار إليّ بيده أن أجرب الرسم بهذا السائل، استلقى تحتي منهك الأنفاس، كنت أسمع طقطقة عظامه، كان نحيلاً، لكنه النحول المعادي الذكي المتغطرس، الأبله أحياناً، غمست سبابتي في السائل الأبيض، رحت أرسم على جسده كائنات مفترسة وأخرى أليفة: ضباعاً، نموراً، غزلاناً، قططاً، أرانب، صقوراً، وأفاعي رقطاء تتسلق أشجاراً شاحبةً بلا أوراق. قلت لها: لا جدوى

Twitter: @ketab_n

يا صديقتي لا جدوى، ما زلت مريضاً ومتعباً وأشعر بالطحالب تتسلّق سقف حلقي وتحاول إخراس صوتي، وتعطيل تنفسي، فيما التماسيح تحوم حولي، تتهيأ للانقضاض عليّ. قلت له: أمامنا عدة ساعات، الساعة الآن هي الرابعة فجراً، الزوار لن يأتوا قبل العاشرة، سأخلق منك رجلاً جديداً بلا طحالب، ومياه نهرك سوف تعود صافيةً، دفّاقةً، نهضت من جديد، مشت باتجاه خزانة الملابس، ارتدت ملابسها، اقتربت مني، قبّلتني في سرة بطني، داعبت شعر صدري، خرجت من الغرفة، غابت في الخارج طويلاً طويلاً. عند التاسعة والنصف، رنّ جرس الهاتف، زحفت إليه مهلهلة الأطراف والأفكار، جاء صوتها مثلوماً متقطعاً: صديقي أيها الرجل الأسمر، إنهم يحاصرونني في كل مكان، في البيت والشارع والعمل، إنهم يتهامسون حولي، يخططون لالتهامي، حاول أن تقتات وحدك، ليس الأمر صعباً، ابحث عن سوائل أخرى، فالأسطورة تقول إن السائل السحري موجود حولنا غير بعيد عنا، لكننا لا نستطيع أن نراه إلا من خلال الألم والرعب والجريمة، ستجد السائل يوماً ما وترسم بنفسك، على جسدك ما تشتهي من الفضائح والأسرار والأمنيات السرية والكوارث، ستبتعد عنك التماسيح وتختفي الطحالب وستعرف بالضبط فيما إذا كانت أطياف المستنقع تبكي أم تضحك أم تفعل شيئاً آخر، قاتل وحدك أيها الرجل الأسمر النحيل، سيكون طعم انتصارك مختلفاً، وداعاً.

أغلقت المرأة البيضاء الممتلئة الهاتف، بقي الهاتف في يدي، كانت لحظات قاسية وغامضة، لم أكن أتصور أن أفقد هذه المخلوقة يوماً ما، كنت أظنها طرفاً أبدياً مركزياً من أطراف جسدي، رحت أجر عظامي باتجاه السرير. تماماً مستغرقة في كتاب، تجمدت في مكاني مصدوماً غير قادر على الحركة والتنفس وتمييز المرئيات، قلت

Twitter: @ketab_n

له: ما قلتلها: كنت أتحدث معك على الهاتف قبل لحظات، كنت تقولين إنك راحلة وإنهم يحاصرونك في البيت والشارع والعمل وأن الأسطورة تقول .. آه إنني متعب ومريض، وأتخيل أشياء مرعبة ومخجلة، ضحكتْ طويلاً بصوتٍ عالٍ حتى انقلبت على ظهرها، اقتربت مني، رأسي المشعث بين يديها، مررت رؤوس أصابعها على حواف شحمتي إذني، قبلتني طويلاً، في شفتي السفلى البلهاء، أحنت جسدي على السرير، استلقت فوقي، بينما أخذت تتعالى في الخارج صرخات استغاثات مكتومة لنزلاء فندق مجاور يلتهمه حريق كبير.

Twitter: @ketab_n

حديقة مضاءة بشكل جيد

كنت أخرج من سوبرماركت الرافدين برام الله، اشتريت قهوة ومحارم مبلولة وعلبتيّ «تونة»، كانت دورية احتلال تقف أمام دوار الرافدين، كنت وحيداً في المكان، والليل يقترب من منتصفه، أطلقت الدورية بوقها الوقح، فتجاهلته وواصلت طريقي للبيت. فتح جندي نافذة الدورية ونادى: «تعال هون يا قرد». تجاهلته فصرخ: «تعال هون ولا بطخك». ذهبت إليه وذهني مشغول بفكرة غير مكتملة وعالقة في ذهن روايتي التي أكتبها الآن: هل عليّ أن أجعل والد شخصيتي الرئيسة يعرف أن ابنه لوطي؟.

في طريقي إليه لمحت شرطياً فلسطينياً مختبئاً في حديقة مبنى مهم، كانت الحديقة مضاءةً، وكان من السهل رؤية الشرطي مع بندقيته وهو يتحرك بشكل غامض، فقلت في نفسي سأضيف هذا المشهد إلى الرواية، حديقة مضاءة وشرطي قلق ومسلح و مذعور يتحرك فيها، ولا يسمح له بمغادرتها.

كانت صفعة الجندي بانتظاري، صفعة قوية مائية ومائلة، لكنني لم أحس بها، لم تؤلمني، ربما لأني كنت محصّناً بحس سخرية كبير واستهتار عنيف بهذه الكائنات

Twitter: @ketab_n

المعاقة التي اسمها جنود احتلال، وربما لأنني كنت مشغولاً بالأحداث التي تنقص روايتي التي جنّنت أيامي: «لما أحكيلك تعال، بتيجي بسرعة».

كانت آخر صفعة صُفعتها في حياتي من يد أبي قبل أربعين عاماً تقريباً، رفضت طلبه لإحضار كرتونة بيض، من البقالة، أتذكرها تماماً، هوت يد أبي في الصالون أمام الضيوف على وجهي، هربت من أمامه، أغلقت الباب خلفي وأسلمت روحي لدوامة بكاء كبيرة.

- «روح على البيت يا قرد».

ابتعدت عن الجندي ومشيت إلى البيت، لكن شيئاً ما في داخلي، قال لي حين حاذيت الحديقة المضاءة في المبنى المهم: انظر إلى الشرطي، فنظرت، رأيت وجهه وهو يحدق بي، ذعرت، وجمدت في مكاني، أستاذ أنا آسف، ما اقدرت أعمل شيء، سامحني.

كان زهير أجمل وألطف، وأذكى طلابي في نادي محمود درويش الإبداعي بالمدرسة التي ما زلت حتى الآن أعلّم فيها الكتابة.

كبر الولد الأشقر القصير الذي أرهق نفسه ومكتبة المدرسة وهو يبحث فيها عن كتب لعزيز ناسين وسميرة عزام وغسان كنفاني وراشد حسين ومحمود درويش، صار الآن شرطياً يتحرك بشكل غامض في حديقة مضاءة بشكل جيد وتابعة لمبنى مهم.

لم أقدر على الحديث مع زهير، رأيت يدي تتحسس خدي بشكل مفاجئ الآن أحسست بألم صفعة الجندي المحتل.

Twitter: @ketab_n

على أريكتي!

ما أن أفتح باب بيتي في الصباح الباكر، حتى أراه نائماً باسترخاءٍ شديدٍ على أريكةٍ فخمةٍ، أهداني إياها صديقي خالد بعد أن كذبت عليه قبل بضع سنوات وأوهمته أني سأتزوج قريباً. ولمّا كان باب بيتي ضيّقاً جداً على الأريكة، فقد تركتها في الحديقة، يتناوب الجلوس عليها والنوم فيها الغبار والأصدقاء والشمس والمطر والحشرات والندى والقطط... وأخيراً هذا الكائنُ الرمادي الصغير، الذي يتّخذها باستمتاعٍ غريبٍ منذ أشهر غرفةَ نومٍ له، الحكاية ليست في الأريكة ونوم الكلب، بل في الأصوات الغامضة التي يُصدرها في وجهي وهو ينهض متثاقلاً عن أريكتي، حين أهمّ بفتح باب البيت، لأتمشى قليلاً مع فنجان قهوتي، قبل مغادرتي إلى العمل.

نباح غريب لا أعرف طبيعته، هل هو شكره الصباحي لي على استضافتي الليلية له في أريكتي، أم لإيقاظي إياه في وقت محدد يحتاجه للحاق بطعام ساخن ينتظره، أو رفقة كلاب حلوة يحتاجها، أم هو غضبه عليّ وشتيمته في وجهي لأني أخدش نومه وأخرّب صباحه؟.

جمال كثير (يشرّف صباحي) في غموض دوافع نباحه، جمال أكثر في عجزي عن الدفاع عن أريكتي، جمال لا يوصف في إحساس الكلب بأن كل أرائك العالم أسرّة محتملة له.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حصاد الخسارات!

منذ أربعين عاماً وأنا أتقن دوري ببراعة الخاسر الفرح وألم الساخر الخفي، وتبرير الفيلسوف الحزين، خلقت فقط لأكون صديق الشاب الوسيم، والطالب المتفوق، والرجل الثري، والمرأة التي تحب صديقي، وحائط مبكى صديقاتي المكسورات، ومستشارهن السعيد لشؤون الاكتشاف والغرابة والترك والارتباك والتردد والغياب، والتقدم، وأذن حكايات أصحابي الوسيمين، ومستودع دموع وأسرار وجنون صديقاتي الصغيرات في السن، والجالس دوماً مع طلاب متفوقين، والصديق (صاحب الذقن النابتة دوماً) الصعلوك لصاحبي الثري، الذي يدفع عني بسخاء غير عادي، دون أن يشعر أحدنا بحرج ما، كم أحسه متفاهماً مع نفسه ومعي تجاهي!: (مهو صديقي جداً، وهو معلم حكومة). لم أكن مرة الأول في أي شيء، لم أفز مرةً بجائزة، لم يتم تمييزي في شأن ما، لم أكن الأول مرةً (ولو بالمصادفة) في طابور ما أمام مؤسسة حكومية، لم أكن مرةً وسيماً ولا متفوقاً ولا ثرياً. لكن هذا الدور الهامشي في الحب والحياة، منحني أكثر من الوسامة والثراء والتفوق: قوة الحلم، رهافة التأمل، متعة

Twitter: @ketab_n

الانتظار، بهجة التوغل في جوهر الإنسان، سعادة الخسارة الغامضة، شغف النقصان المبدع.

فالوسيمون لا يحلمون، الأثرياء لا يتأملون، المتفوقون لا يتوغلون.

شكراً للرب، شكراً للرب.

Twitter: @ketab_n

صديقي المجنون

في بيت صديقي رائد حمامرة، الطابق الأخير من عمارة شاهقة، رائد وأنا على السطح الآن نعد شواءً لذيذاً، مطر ناعم يسقط بجوارنا، رام الله تبدو من فوق وكأنها وسواس لم ينضج بعد في رأس رب المدن المتردد.

رائد وأنا نشعر بحزن شديد، هذا المساء، فلا فرصة اليوم لنحزن ذلك الحزن الوجودي الغامض، الممتع، لا ضيوف في الداخل، نهرب منهم ونشعر مع وجودهم باغتراب مركب، اعتاد رائد (بالتواطؤ معي) دعوة ضيوفه على أفخر العشاءات، ليس لأنه يحبهم أو يشتاق لهم، بل لأن لوحة الحزن الوجودي لا تكتمل إلا بوجودهم، نحتاجهم يثرثرون ويضحكون لنخرج أنا وهو إلى السطح مستعيناً هو بمناجم خسارتي متنوعة الأبعاد، ومستخدماً أنا جنون فكرة ضيوفه المستخدمين، يهش رائد على قطع اللحم وعلى روحه المعذّبة، بينما أقف أنا على حافة السطح متأملاً جمال مسائنا المخدوش المشترك.

Twitter: @ketab_n

استهوتني لعبة رائد الجهنمية، صار يدعوني كلما دعا ضيوفه فنخرج معاً لنشتمهم ونرثي هشاشتنا ووحشتنا، نراقبهم من ثقب الباب وهم يضحكون على عزلتنا وابتعادنا. ونضحك من أعماق بكائنا، نضحك ونحن نهش ونهش ونهش، الضيوف يضحكون علينا، ونحن نضحك عليهم، فلا خاسر ولا رابح في لعبة المجنون رائد.

Twitter: @ketab_n

ريتشارد جير

مطر في الخارج ينبح، معاً في السرير، نشاهد فيلماً لـ(ريتشارد جير)، هي في حضني، ظهرها يمضغ بطني، يداي على بطنها تغرقان بسعادة متوحشة في تجويف بطنها الخفيف، كلما بكى ريتشارد نبكي، كلما مات نموت، كلما قبّل نقبّل، كلما غضب نغضب. في غابة الانفعالات الهائجة هذه كنا نحبنا أكثر، وننجبنا أجمل، في زمن قديم حدث هذا.

الآن ثمة رجل آخر تجلس في حضنه ظهراً لبطن، تشاهد معه فيلماً لبطل سينمائي آخر، يدا هذا الرجل تغرقان في وعد بطنها الكبير، (كلما كبر هذا البطن أحببتك أكثر) يقول لها الرجل الآخر، خارجهما لا مطر ينبح. لماذا لا يبكي أو يموت هذا البطل السينمائي؟ الرجل الآخر لا يرد، لأنه لم يسمع، كان منهمكاً بحنان خائف بتحسس صوت رجل آخر داخل بطنها الكبير.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بنتان قررتا أن تخطئا أو تصيبا

البنت الأولى: أعماها الصواب المرتب، جمّدتها الطرق المعبّدة، سرق روحها الوضوح، حدّد قلبها الاعتياد، شلّ حواسها الخوف؛ فقررت أن تخطئ أو تصيب، هبطت منحدر الطيرة، في سيارة صديقها الكهل، (ربما هو أنا) رأته يلقي زجاجات فارغة من النافذة، فعلت مثله، فرشقت الفراغ بزجاجة، ثم شقت بطن الصمت بأخرى، وهناك في ملتقى شارع معبد مع حقل زيتون مائل إلى العتمة، جرفت مع صديقها ثلج الليل المعلب، ثم قعدت على الرصيف تزعج في روحها قلق الخطأ، وتغيظ في جسدها جرس الخطر.

البنت الثانية: أعماها الخطأ العشوائي، أضاعت الطرق الوعرة قدميها، شتّت روحها الغموض، بعثرت قلبها التجارب، سمّمت حواسها الشجاعة، فقررت أن تخطئ أو تصيب، هبطت منحدرات الطيرة مع صديقها الكهل (ربما هو أنا) واستعادت لروحها وجه الطريق بعد أن علقت حبلاً بين جبلين، شنقت به صيحاتها القديمات، وشتمت العتمة بأقذع الكلام، واعتذرت من جثة الصواب الممزقة على سفح ليلة شهيرة.

أما أنا فقررت أن لا أخطئ أو أن ـ ربما ـ لا أصيب، وأن أحب البنتين والخطأ والصواب

Twitter: @ketab_n

معاً، على الرغم من أني لا أعلم أبداً ما هو الخطأ وما هو الصواب؟ وأن أردد دائماً بيني وبين نفسي ما قاله الممثل الأميركي بول نيومان: «لقد كان من الطبيعي أن أضل الطريق، فقد كان الصواب يحيط بي من كل جانب».

Twitter: @ketab_n

امرأتان

امرأتان فلسطينيتان مسنتان قادمتان من أميركا، على طاولة قريبة مني.

تشيران بذلك النوع من الحزن المنذهل والسعيد إلى أماكن وأزمنة هنا وهناك، بأياد واهنة معجونة بالنهايات.

- هنا كنت أمشي معه يداً بيد.

هناك انفصلت يدي عن يده بعد أن قبضت يدي على يد أخرى في يده.

- هنا ماتت أمي الرسامة في ريعان لوحاتها.

- هناك ولدت شقيقتي، وهناك ماتت بسرطان الجلد.

- هنا درست، وهناك خلف هذا المبنى مارست الخوف والضحك والانشقاق والرجال.

- هناك استشهد عمي الفدائي في ربيع القلب والبندقية، وهناك خانته زوجته مع فدائي آخر.

يا رب أمد في عمري لأصنع كل هذه الجنة من الذكريات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رام الله تحت رام الله

مدينة أخرى تحت رام الله؟ قبل عدة سنين كانت تسيطر عليّ فكرة وجود مدينة تحت مدينتنا، الآن تسيطر عليّ فكرة الهبوط إلى تلك المدينة، بعد أن حسمت حقيقة وجودها من عدمه. نعم، توجد مدينة تحت أرض رام الله، حفريات شارع ركب أعانتني على الاكتشاف، لا أريد أن أفصح كيف، سأموت وسيموت السر معي، المدينة التحتية بحجم رام الله تقريباً، مدينة ببشر مختلفين عنّا شكلاً وسلالةً وأسلوب حياة. وضاح زقطان سألني بدهشة عن سر دموعي الخفيفة وأنا أتأمل الجرافة وهي تفقأ عيني الشارع وتزيل ركامات الأتربة من أمام المقهى، لم أجبه لكنني سمعته يهمس من وراء ظهري للنادل ولاء: زياد محيّر هذه الأيام، إنه يحلم بمدن تنهض من نومها، وبيوت تتساقط فوق الرؤوس، وتهشم الأفكار وتدمي الأحلام، وغبار يجلس في المقاهي مع الناس ويأكل الحمص في المطعم القريب ويشرب القهوة، ومخلوقات عجيبة الشكل نصفها العلوي بشري والسفلي جذوع شجر.

نعم، أقول للذين شاهدوني، ليلة أمس، وأنا أهبط في حفرة بالقرب من مقهى رام الله، مدخلاً يدي في أحد شُقوقها إنني أحاول باستمرار البحث عن ثقب صغير، في

Twitter: @ketab_n

شارع من الشوارع لأفحص إمكانية أن الثقب يُسلم إلى طرفٍ ما من أطراف المدينة الأخرى.

أمن أجل ذلك أعشق المدن المدمرة، وأبحث في الإنترنت عن مشاهد دمار مدن لندن وباريس وبرلين في الحرب العالمية الثانية، وأخط باستمرار على حيطان بيتي وأسوار مدينتي جملة غسان كنفاني الشهيرة في قصته البديعة (شيء لا يذهب): «آه يا حبيبتي، لو نستطيع تدمير هذا العالم وبناءه من جديد حسب أهوائنا». وأعلق لوحة بيكاسو الشهيرة (جورنيكا) على سور حديقتي، وهي القرية الإسبانية التي أباد الألمان معظم سكانها ودمروها عن بكرة جدها وليس أبيها.

وأنا أجلس صباحاً قبل يومين في الزاوية القصيّة من المقهى سمعت رجلاً يقول لأبي إلياس: أستغرب من نفسي يا أبا إلياس لماذا أحب أن يبقى هذا الشارع مدمراً؟ لا أريد أن يردموا الحفر ويعيدوا تعبيد الشارع، أستمتع بمشهد الغبار والدمار والحفر، وأستغرب من ذاتي. نظر الرجل إلى وجهي وطلب مساعدتي في التفسير. لم أعرف بالضبط ماذا أجيبه، ولكنني شعرت بأنه يحثني بطريقة ما لا واعية على مزيد من البحث عن أسرار المدينة التحتية.

يقول الشاعر الفرنسي لوتريامون (١٨٧٠ ــ ١٨٦٤) في كتابه الشهير ــ التدميري للغة والرؤيا ــ (أناشيد مالدورور) «إنّه لا يعرف ما هو الحبّ وما هي الصداقة، وهو لم يجدهما قطّ بين الجنس البشري، ويتكلم على لسان بطله مالدورور قائلاً إنه سيكون سعيداً عندما يشاهد على الشاطئ باخرة ركّاب تغرق على مقربة منه في المياه. وهو منذ بداية الأناشيد يعلن أنه سوف يسخّر عبقريته لتجسيد ملذات القساوة، ولن يمجد الشرّ بل سيصرّح بكلّ وضوح بأنّ أفكار بطله مالدورور العدوانية والمتعجرفة

Twitter: @ketab_n

والهدّامة مزروعة في نفوس كل البشر».

مدمر العالم الافتراضي، شاتم نفسه ولاعِن حظه، والمتمني الغرق لكل سفن العالم والجفاف لبحاره، الظلامي الروح، المنفصل حتى عن ذاكرته، مكتشف بقع الظلام في نفوس البشر والسبّاق إلى النبش في طبيعة الإنسان التمزيقية، هذا هو الرجل الغامض الذي كان يمر في الأزقة الباردة والمعتمة مختبئاً داخل معطف وقبعة بعيداً عن شوارع الناس النهارية الآمنة، والذي لطالما أعجبني بخوف ممتع في تدميراته وعزلته ومرضه ورفضه كلَّ متفق عليه بين البشر، وعدم إيمانه بالبشرية وتشكيكه بقدرتها على البقاء، الرجل لم يطبق أيّاً من آثامه التي مارسها أبطال نصوصه حلماً ورؤيا، كان مخلوقاً غريب الأطوار محيّر التكوين محدودباً هزيلاً، أشعث الشعر، خشن الصوت بارز الصدغين. ثمة مدن مدمرة في نصوص لوتريامون، عمال مناجم لغويون، غبار مضيء، مثل حشرات ليل حالك، الشهوة شديدة الاعتزاز بذاتها، كم أحب اللغة الغبارية الهائجة، ذات الرياح المتلاطمة الأهواء، لغة لوتريامون ملأتني بالحماسة لأبحث عن دماري الحبيب هناك تحت الأرض.

«أؤكد لك أنه لا يوجد نار في عيني، مع أني أشعر فيهما بالانطباع نفسه الذي كنت سأحس به فيما لو كانت جمجمتي مغموسة في خوذة من الجمر المتأجّج. كيف تريد للحوم براءتي أن تغلي في الدن، ما دمت لا أسمع سوى صرخات ضعيفة جدّاً ومبهمة، ليست بالنسبة إليّ سوى تأوّهات الريح، التي تمرّ فوق رؤوسنا. إنّه لمن المستحيل أن يكون ثمّة عقرب قد ركّز مقرّه ومشابكه الحادّة في جوف محجري المقطع؛ أعتقد بالأحرى أنها كمّاشات قوية تجرش الأعصاب البصرية، إلا أنني متّفق معك، على أنّ الدم، الذي يملأ الدن، قد تمّ استخراجه من أوردتي من قبل جلاد غير منظور، أثناء

Twitter: @ketab_n

رقاد الليلة الأخيرة». (النشيد الثالث - المقطع الأول - أناشيد مالدورور).

لوتريامون المجنون الملعون المعذب، كان من سكان المدن التحتية، قاده فضوله إلى فتحة مغلقة بإحكام بقرص فولاذي، في سقف سمائه، وحين قدر على فتح القرص بعيداً عن أعين حراس مدينته، خرج إلى مدن الأرض، وجال في أنحائها مدهوشاً، ولما عرف أنه تورط في الشر والتفاهة والكذب حاول أن يعود إلى مدينته، لكن حراس مدينته كانوا قد أحكموا إغلاق الفتحة بطرق حديثة لم يستطع هو معرفتها، حفر في كل مكان وهبط في الحفر ونادى بأعلى صوته ولم يسمعه أحد، هل يعاقبونه على خيانته؟ أم تراهم ظنوه ميتاً؟.

ثمة عامل منجم داخلي يعيش برفش وقبعة فولاذية وملابس سميكة، أطل برأسه من رأسي قبل أيام بينما كنت أحاور سائق الجرافة حول حجم العمق الذي سيحفرونه، في الشارع، هرب السائق وترك جرافته وراح يحدّث الناس عن مخلوق عجيب برأسين، يتجول بالقرب من مقهى رام الله.

سأزور بعد قليل المدينة التحتية تلك، وسيغلق شرطي غاضب الفتحة التي سأحفرها بفأسي في منتصف ليلة قادمة أمام المقهى، سأروي لحراس المدينة التحتية قصة ابنهم الغريب لوتريامون الذي مات مقهوراً بسبب إغلاق القرص، كان يريد فقط زيارة مكان آخر، كان شاعراً من حقه أن يغترب قليلاً ويختبر العالم، ثم يعود إلى أرضه، تماماً مثلي أنا، فقد أغلق العمال والشرطة فتحة الشارع، وشتموا جرذان الأرض البشرية (الأدباء والفنانين المجانين) الذين يتوهمون وجود مدن أخرى تنتظرهم.

الآن أكتب لكم من هناك، من تحت الأرض، عتمة عتمة عتمة... لكني ويا للروعة،

Twitter: @ketab_n

أرى كل شيء، سأشتاق (أعرف) بعد قليل إلى صباحات الجمعة والسبت مع وضاح وقهوة ولاء، والزاوية القصية في المقهى، سأصيح بأعلى صوتي، افتحوا لي الباب يا أهل مدينتي، لن يسمعوا، أعرف، أو سيزعمون أنهم لا يسمعون، هكذا نحن: صاعدون وهابطون وما رحلة الكتابة سوى نبيذ وموسيقى هذا الصعود وهذا الهبوط. مع أنف الأقراص الفولاذية وغضب الشرطة، سنظل نصعد ونهبط، تلك هي حكمة الكتابة وقانونها وعبثيتها ولعنتها في آن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قلب

وحين تعتم فجأة في وجهك مدن الضوء يا هذا، تسلل بهدوء الحزين الشجاع إلى أقرب طريق فرعي، وإن شعرت بتعب وعجز في العينين والقدمين توكأ إلى آخر ضحكة لها فجّرتها في وجهك ذات وطن ومقهى وأصحاب وسلام، وابحث هناك عن طفل وطفلة يلعبان أمام بيت، اقترب منهما ببطء العارف وألمه:

إياكما أن تكبرا يا صغيريّ، إياكما أن تعرفا، ثم انصرف سريعاً إلى حزن معلن خلف شاحنة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فستق

بين كتابين أتنقل، بين عالمين أتوزع، بين شخصين (هل يجب أن أذكر فلسطينيين؟ يا لإغواء الكلمة وضرورتها، ويا لابتذالها وعدم ضرورتها!)، ينتميان إلى وطن «كرم الروح» بتعبير حسين البرغوثي، أنقسم، ذلك الانقسام الجمالي الذي يضعني أمام عمق وخضرة وما ورائية الحياة: مذكرات يوسف الصايغ، وكتاب: على سرعة ٤٠ لمحمد هديب.

في بهو مكان لا يجلس فيه مثقفون، سأجلس، سيبتسم النادل الذي درّسته في الصف التاسع كثيراً في وجهي ابتسامات حقيقية، وسيزيد من حبات الفستق في الصحن الخشبي، وسيقول لي كما يقول دائما (لا يسأم) «أستاز بتحب أحطلك فيروز ولا ماجدة الرومي»؟، وسيحضر لي نصاً ضعيفاً كتبه في حبيبة لا تستجيب: «أستاز شفلي هالنص منيح ولا لأ، جننتني هَ البنت». سأقاوم ركاكة هذا الصباح مستعيناً بمحمد هديب ويوسف الصايغ، وسأتنهد وأقول لي وأضحك على نفسي لأنني أفضح ذاتي: هؤلاء البسطاء جداً حد الركاكة الجميلة هم أبطالك؟ ألم تكتب ذلك؟، وسأتابع معزياً ذاتي المفضوحة: «مهو يا هذول يا المثقفين، شو بتختار»؟.

Twitter: @ketab_n

سأصيح دون صوت: «هذول، بختار هذول»، فكل هذا العذاب يهون أمام عذاب وجود مثقف (عظيم) على طاولة بجانبي يضحك على امرأة مبهورة، إلى درجة الخرس.

Twitter: @ketab_n

صمت الكراسي

أن تكتب في الصباح الباكر اسم امرأة تُحبها على بتلة وردة، ثم تغيب نهاراً كاملاً، وحين تعود في المساء تجد أمام بيتك راعياً مؤدباً يعتذر نيابةً عن شياهه التي أكلت الوردة، مرعوباً تفكّر في اسمها، ما الذي سيحدث له حين تحز سكين العيد القادم عنق الشاة وبطنها؟.

***

الوطن هو أن يبتسم حين أشتمه، ويبتسم حين أحبه، ويبتسم حين أهجره، ويبتسم حين أعود إليه.

***

عودني أبي أن يعانقني بحرارة كلما قرأت كتاباً، تحوّل الأمر فيما بعد إلى رغبة في قراءة كتب جديدة استعجالاً لعناق جديد.

الآن وبعد أكثر من أربعين عاماً من الاحتراق بنار الكتب اللذيذة، ما زلت أتلفّت حولي كلما أنهيت كتاباً ما، فلا أجد أحداً، فأضم جسدي بيدي، مغمضاً عيني، متخيلاً

Twitter: @ketab_n

عناق أبي لي.

أمشي بهدوء أمام رفوف مكتبة عامة أو خاصة، ألمس الكتب بيدي أو عيني فأرى في الزاوية أباً ثمانينياً يعانق كهلاً أربعينياً.

***

في مساءاتي المتأخرة أمر كل ليلة تقريباً ـ هابطاً إلى بيتي ـ على مقهى (سنغريا)، المحتشد بالكلام والابتسامات وتحمس النادلين المتعب والموسيقى المبتهجة والدخان والضحكات والثرثرات المطلية بقشرة فرح مفتعل. في الصباح الباكر أمر على (سنغريا) ـ صعوداً إلى مدرستي ـ فأصاب بالذهول من فرط وحشة المكان. لكن أكثر ما يرعبني هو الكراسي الوحيدة المبعثرة بلا نظام هنا وهناك، كالجثث تماماً، يحزنني صمت الكراسي.

***

قبل وصولي إلى تخوم عامي الـ٤٨ مرتعشاً أريد أن أتذكّر بحب كبير: عمالقةً صنعوا شهيتي للحياة والحلم والكتابة: غسان كنفاني، محمود درويش، هنري ميللر، حسين البرغوثي، خليل السكاكيني. أساتذتي العظام: شكراً لوجودكم في عالمنا، لم تموتوا، لم تموتوا، إلا إذا ماتت الحياة.

***

أريدك انشقاقية وانتهاكية، وأريدني ضعفك حين تنشقّين، وخوفك حين تَنتَهكين، أريدني رغبتك المفاجئة في حضن الأم وحنينك إلى عتمة الدفء في غرفة الأخت.

***

Twitter: @ketab_n

ربما أتحمل غضب صديق خنته وتوقفت عن الكتابة، ربما أعيش مع حنق أبي الذي خذلته حين لم أدرس الطب، ربما أنجو من استياء أمي لأني لم أتزوج بعد، ربما أنسى تذمر طلابي من علبة (كورونا) شوهدت وهي تشربني في زاوية شارع.

فقد يسامحني الصديق والأم والأب والطلاب، لكني أبداً لن أتحمل ولن أنجو ولن أعيش ولن أنسى غضب الشهداء واستياءهم.

***

كلما امتلأنا سقطنا، كلما امتلأنا سقطنا.

درس على شكل أغنية، يغنيها كل فجر غصن شجرة تفاح، ممتلئ بالتفاح، يقترب الغصن سقوطاً سقوطاً من أرض الحديقة، كلما امتلأنا سقطنا، كلما امتلأنا سقطنا.

أقطف تفاحة من شجرتي فيرتفع الغصن قليلاً.

أقطف فكرة من ذهني فأرتفع قليلاً.

أيها الفراغ، تعال، واقطفني، ثم خذني إلى البياض الكبير.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثلاث هزائم من المخيم

في المخيم رأيت هذا المشهد الذي سيظل يرافقني في أحلامي وواقعي بوجع غريب: مُسنّ غاضب يقف على حدود قطعة أرضه الضئيلة، أمام مُسنّ آخر غاضب، المُسنّ الأول يتهم الثاني بالتقدّم في قطعة أرضه القليلة جداً، المسن الثاني ينفي بغضب تقدمه ويتهم الأول بالخرف، يتصارع المسنان على حدود القطعتين، ويتبادلان اللكمات الواهنة جداً، يقعان على الأرض، في مشهد مخيف لم أفهم منه شيئاً، كنت صغيراً على حدود عقدي الأول، يتقدم فجأة مسن غاضب ثالث هو جدي: «متقاتلين على ربع متر من أرض مش إلكم، وإنتو اللي تركتوا آلاف الدونمات، يا عيب الشوم».

نهض المسنان فجأةً، هجما على بعضهما البعض دموعاً وعناقاً.

انكمشت في حضن أبي الذي بكى هو الآخر، ولم أفهم حينها سر الغضب والرضا السريعين، فيما بعد كبرت، وعرفت. ما زلت أعرف وأنكمش.

***

في المخيم حين تفتّح في وعيي السؤال داخلي، لم تكن أسئلتي لأبي المدرس والشاعر

Twitter: @ketab_n

تشبه أسئلة الأطفال الآخرين، مثل: كيف نجيء إلى العالم؟ وما هو الله؟ ولماذا يموت الإنسان؟ وماذا تفعل مع أمي حين تغلقان الباب يا أبي؟.

كان أول أسئلتي الغريبة: لماذا سعال جارنا قريب جداً إلينا يا أبي؟

***

في المخيم خسرت حبي الأول، كنت أقف خلف النافذة في غرفة قليلة الضوء، وأمسّد لها شعري بيدي كرمز خفيّ لتحية أو شوق (طريقة المحبين القديمة، انقرضت الآن)، لم أكن أعرف أنّ عشرات البنات والشباب كانوا يمسّدون شعر رؤوسهم خلفي وبجانبي وأمامي، لم يعرف أحد من يمسّد لمن، في مهب عتمة المخيم.

هل كانت خسارتي الحب مجازاً لخسارتي بلادي؟ هكذا ضاع حبي في حمى حشود المحبين الواقفين خلف نوافذ قليلة الضوء. كما ضاعت بلادنا في حمى الغزاة المحتشدين أمام نوافذنا.

Twitter: @ketab_n

أطفال ونوافذ

أمام عمارة قيد الإنشاء، في صباح مبكر، كانتا تنتظران حافلة الرّوضة، جالستين ملتصقتين إحداهما بالأخرى، بثبات مؤدّب على الرصيف، تشيران بالسّبابة نحو نوافذ العمارة، تعدّانها بصوت صامت: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨... وأسمعهما تختلفان على العدد؛ تقول إحداهما: (ثماني)، وتقول الأخرى (تسع) ولا ينهي خلافهما الهامس سوى وصول الحافلة. ما الذي كنت أفعله هناك في صباح مُبكر أمام طفلتيْن كانتا تختلفان على عدد نوافذ عمارة قيد الإنشاء؟

جلستُ على الرصيف، نظرتُ إلى العمارة، أشرت بسبابتي إلى النوافذ، بدأت أعدّها، وصل العدد إلى ألف، تعبتُ من العدّ، توقّفتُ. لماذا لم تأت حافلتي بعد؟ نظرت حولي، لم يكن أحد بجانبي أختلف معه، لكني واصلت العدّ حتى وصلت المليونَ، فسقطت إصبعي إعياءً، ولم تعد العمارة قيد الإنشاء، فقد اكتملت وسكنتها عائلات كثيرة، وصار الأطفال يُطلّون عليّ من النوافذ، يشيرون بسباباتهم نحوي ويعدون: «١».

لم أسمعهم يختلفون.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أسباب رائعة للبكاء

قالت البنت لنفسها: أريد أن أبكي، ولكني لا أعرف لماذا، فذهبت إلى صديقتها، وفوجئت بأنها هي، أيضاً، تريد أن تبكي ولا تعرف لماذا، فاتفقتا على اختراع أسباب للبكاء حتى يصبح للبكاء معنى مريح، جلستا في الشرفة المطلّة على الناس والسيارات، قالت إحداهما:

- هل ترين ذلك الرجل الذي يمشي ببطء وكأنه مريض؟

- نعم، نعم أراه.

- هو أبي الذي مات قبل عشرين عاماً، كنت في سنتي الأولى حينها، منذ تلك اللحظة وأنا بلا أب، وانفجرت ببكاء مريح.

- وهل ترين ذلك الشاب الوسيم الذي يشتري علبة سجائر من البقالة؟

- نعم، نعم أراه.

- هو ابني الذي سيموت في الحرب القادمة.

وانفجرت ببكاء مريح.

Twitter: @ketab_n

استمرت البنتان في اختراع أسباب البكاء.

بسخاء غريب استمرت المدينة في مدهما بأسباب رائعة للبكاء.

كتب القاصّ هذه الأقصوصة كسبب رائع لرغبة في بكاء كان يحتاجه دون أن يدري لماذا.

Twitter: @ketab_n

عيد ميلاد جملة

سفرنا العبثي البطيء في سيارتك بين حيفا ورام الله، فلسطين الكاملة التي كانت تسافر فينا، يدي التي تطير في يدك على إيقاع أغاني إلهام المدفعي، المدن الخيالية التي أكلناها وأكلتنا، القبلات العمياء في المقعد الخلفي من سيارتك في مرآب (مُول المالحة) المعتم، طعم عطرك في الطابق الأخير من جامعة حيفا، ضحكاتنا الدامعة ونحن نتحدّث عن الأطفال والشعر وفلسطين، انتظارك الشهيّ والصبور لي في «ميدان باريس» في حيفا، سفري المتهور إليك بسيارات الأجرة: رام الله – جنين - حيفا، شجارنا مع صاحب الفندق في رام الله الذي احتجّ على بقائي في غرفتك بعد الثانية عشرة ليلاً، شتائمك له، وخروجنا الهائج معاً إلى فندق حيفاويّ، نسيانك سلسالك الذهبي في الفندق، عودتك العنيدة والباكية لاسترجاعه، ذهول العمال العرب وغيرتهم أمام قبلاتنا الدامعة على عشب شاطئ يافا في ليلة شديدة الليل والصيف، اعتقادهم المضحك بأننا يهوديان شرقيان، غضبك مني أحياناً لغيابي ذهنياً عنك وأنت تتحدّثين معي باستفاضة عن ذكريات الطفولة والمدرسة والحارة، خجلك من حبك السّابق لصديق لي حين أذكر اسمه عرَضاً في حديث ما، تلميحاتك الحزينة لي عن الحبّ الذي يهزم الأديان، حديثك الدائم عن أمك، سفرك الذي حرقني ذات مرة، عنقك / القارة

Twitter: @ketab_n

وأنت تقودين السيارة، ليلتنا الغريبة في فندق يهوديّ، بكاءاتنا هناك، انفجاراتنا هناك، غضب الأصدقاء في رام الله مني على «الموبايل» لأنني تركت اجتماعاً أدبياً في «زرياب» وذهبت إلى حيفا، عناقنا الكامل ـ أنت وأنا والموج ـ على مقعد خشبيّ أمام شاطئ حيفاويّ ابتكرناه لنا وحدنا.

كل ذلك أتذكّره الآن، في ليل القدس الماطر، ١٩٩٩/٢/٢٦، ذكرى إيقاع جملتك الشعرية، الشهيرة: «أشعر بأني أحبك». منذ تلك الليلة وقعت في حبيْن: حبك وحبّ جملتك. أردّد الجملة داخلي كل ليلة، والغريب أني نسيتك الآن، في خضمّ الهرم والأصحاب والحروب والكتابة، وأعتقد أنك، أيضاً، نسيتني في اكتظاظ الأيام بالأولاد والأقارب والزوج والمدارس والمستقبل.

لكنني لم أنسَ الجملة؛ ما زلت أقع في غرامها في كلّ ذكرى ميلاد لها: أشعر بأني أحبك.

كل عام وجملتك بخير وفي قلبي.

Twitter: @ketab_n

لن يعرفها أحد

في ٢٠٠٢ رأيتها تشتري بلهفة كتاباً من بسطة كتب في شارع ركب، في ٢٠٠٣ سمعتها تضحك مع صديقتها في شارع الإرسال، في ٢٠٠٤ شممت عطرها في شارع الطيرة، في ٢٠٠٥ لمست يدها دون قصد في شارع المصيون، في ٢٠٠٦ ركضت خلفها في شارع المحاكم، في ٢٠٠٧ رأيتها تبكي في شارع البريد حين أكلت يد مراهق نهدها، في ٢٠٠٨ أكل السرطان نهدها في مشفى الرعاية، في ٢٠٠٩ قرأت في الجريدة عن موتها في بيتها في شارع ...، في ٢٠١٠ سأضع وردة على قبرها في البيرة، في ٢٠١١ سأفكر طويلاً فيها، في ٢٠١٢ سأكتب قصتي القليلة معها، سأنشرها في الجريدة، سيقرؤها بائع البسطة وأنا، والمراهق وحفار قبرها وممرض المشفى وصديقتها، لكن أحداً من هؤلاء لن يعرف أنها هي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان الكون أزرق

تجادلت طويلاً ـ وبلا نتيجة ـ مع صاحب محل فواكه حول لون التفاح الذي أريده، قال لي: «كما ترى التفاح أحمر، كما تريده تماماً». قلت له: «هل أنت مجنون؟ هذا التفاح أزرق، قلت لك أريد تفاحاً أحمر». غضب البائع الذي ظن أنني أسخر منه؛ وطردني من محله.

مشيت طويلاً قبل أن أعود إلى البيت. هاتفت صديقي خالداً وسألته عن سبب دهن السيارات في المدينة باللون الأزرق؟ صرخ صديقي في وجهي: «لا تكلّمني وأنت سكران أو في حمى لحظات كتابة، أكره هذيانك واختلاط حياتك بأحلامك وشخصيات كتاباتك». قلت لجاري جمال، الذي كان مصادفةً يقف فوق سطح بيته: «أنظر لون الهواء، إنه أزرق؟» صمت جاري، رامقاً إياي بنظرات مستغربة، وهازاً رأسه بحزن. استغربت صمته ونظراته.

دخلت البيت، كان كل شيء أزرق: أغلفة الكتب، الباب، النوافذ، الصحون، ضوء النيون، زجاجة العطر، لون المياه المعدنية، الخزانة، ملابسي على المشجب... نظرت إلى وجهي في المرآة، كان أزرق. لم أرتعب، لم أشعر بقلق، لم أكن مجنوناً أو مريضاً

Twitter: @ketab_n

أو أحلم.

اتصلت ـ فوراً ـ بأمي للمرة العشرين لأطمئنّ إلى صحتها، وأسألها بقلق إن كانت الكدمة الزرقاء الواسعة على جبينها التي تسبّب بها تعثرها بسلك معدني وارتطام وجهها بحجر قد زالت.

كان صوت أمي أزرقَ!

Twitter: @ketab_n

ليست أوراقاً

أمشي وحيداً في حي الطيرة، أسمع مستغرباً ـ باستمرار ـ أصواتاً تركض خلفي، أتوقف، أنظر خلفي، لا أحد، مجرد أوراق شجر جافة تطيّرها الريح القوية. أواصل المشي، تواصل الأوراق ركضها بإلحاح غريب خلفي. في لحظةٍ ما، أسمع صوتاً بداخلي يقول لي: لا ليست أوراقاً تلك التي تتراكض خلفك، بل نقص فادح في ماء حداثتك، نساء تركتهن ضائعات على حواف حكايات ناقصة، لا هن روايات، ولا مرويّ عنهن، ذاكرة أصدقاء أموات تطالب بحقها في حياة بسيطة، حكايات روحك فائضة الاكتمال تبحث عن جمال نقصان، دَين في عنقك لمدنٍ أو كتبٍ لم تزرها بعد... أطفالك الجميلون الذين يتدلّون بحزن من رحم جنونك، لا هم في الوجود، ولا هم في اللاوجود، رجال غاضبون في نصوصك استبدلت هواجسهم بهواجسك وحبيباتهم بحبيباتك، أكاذيبك التي تطالب بحصتها من الصدق، لا لا ليست أوراق شجر جافة تلك التي تتراكض خلفك بإلحاح.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنور الذي بلا أسنان

أنور الذي بلا أسنان، أنور السكران الذي في الخمسين، أنور الذي ينسى، كلما رآني، ينسى أنه رآني فيطلب (شيكلين) ليذهب بعد نصف ساعة إلى البيت، (فموعد آخر الحافلات يا أستاذ إلى قريتي بعد نصف ساعة)، أنور الذي يطلب ما طلبه مني من عشرات المارة، أنور الذي يذهب كل نصف ساعة إلى البيت ولا يذهب أبداً إلى البيت، أنور الذي يجلس مع زجاجته كل ليلة أمام مقهى (برنتو)، رأيته في ساعة متأخرة، أمس، نائماً مع زجاجته على الرصيف، أنور الذي ينسى ولا يعرف أنه ينسى، نسي موعد الحافلة الأخيرة ونام. أنور الذي صحا على يدي تلكُز يدَه، قال لي والنعاس يأكله مع الرصيف والليل والشجر: لا أريد (شيكلين) يا أستاذ؛ فقد فات موعد الحافلة الأخيرة إلى القرية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

طاولة رقم ٢٨

تشبهني هذه الصخرة المثلثة المنتزعة عنوة من جبل ما، قالت لي بنت تجالس ذهني، يشبهني هذا الشلال الناعس الخفيف المسروق بقسوة من نهر ما. قلت لبنت كنا في تونس، قالت البنت: نحن في تونس. قلت نعم نحن في تونس، صار كل من حولنا من تونس، جميل أن نبتعد عنا. قلت، جميل أن نستبد بنا، قالت.

كنا نتحدث ونضحك وسط أناس كثيرين يجلسون حولنا، طاولتنا كانت بجانب صخرة وشلال، وكنا في تونس، ثم اختفينا فجأة، فقدنا حواسنا البشرية ولبسنا حواس الشلال النحيل والصخرة المثلثة، صرنا شلالاً ضائعاً وصخرة غريبة، وأرعبنا باختفائنا النادل الخمسيني الذي سيضطر بطريقة ما إلى تبرير اختفاء الطاولة رقم ٢٨، وإلاّ فسيدفع هو فاتورتنا، وتذكرنا بحزن السعداء المضطرب نخلة الأندلس التي جاء بها عبد الرحمن الداخل من الشرق وزرعها في قصره. أي وغد هذا الذي صعد الجبل وهبط النهر، ليقصقصنا ويلصقنا بجدار خرساني، لهدف واحد: أن نكون وهم الناس بعذرية الأشياء وطزاجتها.

لم تطل تأملاتنا، كل هؤلاء شلالات وصخور يا عزيزي، قالت البنت التي تجلس

Twitter: @ketab_n

في ذهني، وأشارت إلى الناس حولنا. عدنا من تونس، إلى رام الله، تنفس النادل الخمسيني الصعداء، وابتسمت صخرة مثلثة مقصقصة بشكل جيد لنا ونحن نمر عليها عائدين إلى البيوت، لهذه الصخرة اسم آخر (حارس المكان) أطلقه عليها جبابرة القص، ثمة شلال صغير لطيف، صعدنا إلى سيارته ليوصلنا إلى البيت، يسمونه (سائق أجرة) قلت للبنت التي ما زالت تجلس في ذهني. أيتها الأرض: يا عالم الصخور المثلثة المنتزعة عنوة من جبل ما والشلالات النحيلة المسروقة بقسوة من نهر ما، من الذي سمّاك الحياة؟.

Twitter: @ketab_n

وقد نبكي

نريد أن نلتقي إذن لأول مرة، سبقنا آخرون فعلوا ذلك، وسيكون في المستقبل آخرون في مقاه أخرى في بلاد أخرى سيفعلون ما سنفعله، سأسألك عن عمرك وعملك وحزنك والرواية التي بين يديك. ستسألينني عن المدرسة وأمي والكتابة، ستقولين في آخر اللقاء: كان جميلاً أن نلتقي. سأقول لك: كان رائعاً أن أعرفك. لكننا سنعود في آخر الليل، وحيدين إلى بيتينا، وقد نبكي دون أن نعرف لماذا.

نريد أن نلتقي إذن، سيصبح نهارنا أغنية أو حمامة، سنشعر بأن فيروز تغني لنا وحدنا، وأن محمود درويش كتب قصتنا شعراً، وأن الله يحبنا ويحوطنا برعايته، لكننا في وقت ما سيأتي، سنعرف بحزن أن فيروز كانت تغني لكل الناس، وسيعود نهارنا بلا حمامات أو أغان، عادياً تماماً مثل نهار المدرسين أو حراس المباني العامة، وأن محمود درويش كتب قصة حب البشر، وأن الله يحب ويحمي الجميع.

نريد أن نلتقي إذن، نعم سنلتقي، وجميل ومدهش أن نلتقي، ولأننا ناضجون ومجانين فسدت بضاعتهم وفلاسفة صغار وأذكياء بما فيه الكفاية، وشوبنهاوريون بامتياز (نسبة إلى شوبنهاور الكئيب والساخر)، سنعرف أن خلف طاولة لقائنا

Twitter: @ketab_n

المدهش طاولة قاتمة لا أكواب شاي أو قهوة أو نبيذ فوقها، يجلس حولها سيوران وبيكت ولوتريامون، صامتين وجامدين كالتماثيل، يحدقون في خشب الطاولة، يتدلى فوقهم ضوء مصباح شحيح.

Twitter: @ketab_n

في البلاد الجميلة تحدث الحروب الجميلة

كانت المرأة التي مات زوجها في الحرب تمشي في الشارع، وكان الرجل الذي ماتت شقيقته في الحرب يبيع الترمس في الشارع، وكانت البنت التي مات شقيقها في الحرب تحب حبيبها في المكتبة، وكان الجد الذي مات حفيده في الحرب يشتري البقدونس من بائعات الرصيف المسنات، وكان الولد الذي مات أبوه في الحرب يذهب إلى المدرسة، وكانت البنت التي مات خالها في الحرب تبكي خوفاً لأن دماً مفاجئاً دهم صباحها، وكان الشاب الذي مات عمه في الحرب يشرب البيرة مع صديقته، وكانت الأم التي لم يمت ابنها في الحرب تخون زوجها الذي مات في الحرب، وكان الزوج يموت في الحرب في اللحظة التي ولد فيها ابنه الوحيد، وكان الابن الوحيد سيموت في الحرب، وكان العجوز الذي كان على وشك الموت في الحرب يفكر في حياته التي هي سلسلة من الحروب، وكان الصديق الذي مات صديقه في الحرب يفكر في الموت في الحرب، وكان الرجل الذي مات جاره في الحرب ما زال مرعوباً من الحرب، وكانت المعلمة التي ماتت زميلتها في الحرب ما زالت تعلّم الطلاب في المدرسة نفسها التي هدمت الحرب نصفها، وكانَ الشعب كله يعيش في الحرب، وكان الوطن الذي مات

Twitter: @ketab_n

في الحرب لا يزال يموت في الحرب، وكان الكل (من مات ومن ينتظر) يتساءل: لماذا تعيش فقط في بلادنا الحرب؟، ألا تسافر الحرب؟ أليس لها أبناء في البلاد الأخرى تزورهم؟، يا لهذه الحرب التي لا تموت أبداً في الحرب!،.

وكان الجواب حرباً منفجرة في فم حرب: الحرب الجميلة لا تحدث أبداً في البلاد غير الجميلة.

Twitter: @ketab_n

الجنود والأمهات يسيئون الفهم

يوم غريب وحافل بسوء الفهم: شاب شجّ رأسي بحجر ظاناً أني شخص آخر، في غرفتي بالمشفى صافحتني بحرارة عجوز ظانةً أني ابن (عايشة، «أم عمر»). بنت أحبها، قالت لي: «أظن أنك لست حبيبي، أنت أحد الذين أحبهم».

يد جاري تكاد تخنقني فيما أنا عائد إلى البيت ليلاً: «يا رجل، فكرتك حرامي، ليش متأخر هيك؟».

طفل مع أمه في الشارع مشيراً نحوي: «ماما، هاي بابا»، مكالمة من رجل لا أعرفه: «كيفك يا خميس؟ بعت العمارة ولا لسه؟».

الوحيدان اللذان لم يسيئا فهمي هذا اليوم، هما: أمي وهي تتحسس وجهي: «ليش وجهك تعبان هيك يمّا؟». وجندي إسرائيلي سمين وقصير، على حاجز احتلالي: «وقّف على الحيط، دير ظهرك، وارفع قميصك».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ولم نقل الكلمة حتى الآن

تمشي بجانبي في مسيرة رام الله، في البداية لم أعرفها، في البداية لم تعرفني، في لحظة ما التقت عيوننا فأدركنا أننا الآن في مصيدة زمن محب ومحبوب، لا يتركنا في حالنا أبداً، هو يستضيفنا الآن على طبق من حلم وشهداء.

الأربعينية الجميلة جداً، التي جنّنت جنود حرس الحدود في أواخر الثمانينيات، لم تعد عشرينية، الأم الحامل التي دوّخت عقل الاحتلال وقلوب شباب الانتفاضة الأولى، لم تعد بنتاً. أشارت إليّ إلى أول المسيرة، كأنها قالت: انظر ابنتي، إنها هناك تهتف. أشرت إليها بعينيّ إلى منتصف المسيرة: كأني قلت لها: انظري طلابي إنهم هناك يهتفون، لم نقل كلمةً واحدةً، لم نبتسم حتى، كل شيء قاله لقاء الزمنين المرتبك في بؤرة حرجة.

منذ أكثر من عشرين عاماً، كنت معها وفيها وخلفها وأمامها نتراكض في شوارع رام الله، هرباً من رصاص المحتل، نرفع جريحاً إلى سيارة إسعاف، أو نحذر شباباً من جنود متربصين، في شارع فرعي أو نوزع البصل حماية من أثر القنابل المسيلة

Twitter: @ketab_n

للدموع، أو نحرّض أصحاب المحال على إغلاق محالهم، كنت أتحين الفرصة لأقول لها في لحظة موت أو جرح أو اعتقال: إني أحبك، وأحب فلسطين. عرفت فيما بعد أن الشباب الذين صاروا كهولاً الآن ويمشون في المسيرة نفسها، كانوا يريدون قول هذه الكلمة لها، كانت المحبوبة المفترضة لكل واحد منّا، كنا نخجل ونؤجل اعترافنا، وكلما هجم الجنود وقتلوا أو اعتقلوا أو جرحوا صديقاً لنا، كنا نقول في سرّنا: بعد أن تهدأ أسطورة دمنا سنتفرّغ للحب، لكن الأسطورة استمرّت، ولم نقل الكلمة حتى الآن.....

في البداية لم تعرفني، في البداية لم أعرفها. في نهاية المسيرة والناس يتفرقون، التقت أعيننا في لحظة قصيرة جداً، لكنها مليئة باعتراف مبتسم وشهي: أحببتكم جميعاً، تشهد على ذلك هذه الشجرة، في هذا الشارع (شارع الإرسال).

Twitter: @ketab_n

محمد الأبيض جداً والقصير

كان اسمه محمد، أبيض جداً، وقصير، جلسنا في مقعد دراسي واحد سنوات طويلة، كنت ابن مخيم وكان هو ابن مدينة، صموتاً جداً كان، يكتفي بابتسامة رداً على كل سؤال أو حدث. حين كنت أضيّع أقلامي أو يسرقها مني الزملاء الأقوى مني، كان يهديني أقلاماً، حين كنت أجوع في الساحة وأهرب خجلاً إلى الساحة الخلفية للمدرسة، كان يعرف أين يجدني، فيأتيني حاملاً معه الصمت والساندويشات. كان اسمه محمد أبيض جداً وقصير.

الحنين هو أن أتذكّر الآن محمد الذي مات قبل ٣٥ عاماً تحت عجلات مرض مفاجئ، أتذكره حين بالصدفة التقيت البارحة أخته التي لا أعرفها في مطعم، كانت تشتري الساندويشات، حين سألني صاحب المطعم عن حالي، ذاكراً اسمي، التفتت أخت محمد إليّ: حضرتك الأستاذ زياد خداّش؟.

نعم أنا هو.

أنا أخت محمد الأبيض جداً والقصير، والميت، البارحة كنت أتفقد دفاتره المدرسية، وقرأت اسمك في دفتر مذكرات، كان يكتبه عنك. كتب يقول: إنه يحبك جداً، لأنك كنت تزوّده دوماً بالساندويشات والأقلام والمساطر.

كان اسمه محمد، أبيض جداً وقصير، كان أصدق من فراشة، كان حبيبي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان لي صديق اسمه سامي

(رقصة أبي) قصةٌ مؤثرةٌ لا أدري أين قرأتها، عن بنت (من ذوي الاحتياجات الخاصة)، كان أبوها يعلّمها الرقص، مات أبوها فجأةً، لكن الرقصة لم تمت، صمّمت البنت على أن تكمل الرقصة وحدها بإيحاءٍ من شبح أبيها الذي يحوم حولها. كم منّا أكمل أو بدأ رقصته بعد أن مات معلم رقصه؟ كم منّا واصل الطريق أو بدأها بعد أن اختفى قصاص أثره؟. قصاصو الأثر، ومعلمو الرقص لا يموتون، إنهم يتوارون فقط، يراقبوننا من بعيد ويبتسمون، بحب يبتسمون، حتى ونحن نخونهم يبتسمون. أنا، أيضاً، لديّ رقصتي التي غاب أستاذها، لكنني لم أبدأها. صديقي سامي، أستاذي في الموت، مغامراً كان بإدهاش، كان يحب القفز عن المناطق العالية جداً، كان يحاول أن يدرّبني، يمسك يدي ويقول: صدقني الهاوية داخلك، أما هذه الهاوية التي نقفز عنها، فما هي سوى صورة عنها. لا هاويات في الخارج يا صديقي، لا هاويات. لم أقفز مرةً واحدةً، قفز هو مئات المرات. ومرةً من المرات قفز داخل سيارة عسكرية احتلالية، ومات. حاولت بعده أن أقفز عن المرتفعات، هامساً لقلبي: (الهاوية هنا وليست هناك)، لكن دون جدوى. لم أبدأ رقصة معلمي وحبيب صباي سامي، ما زلت أحس به حتى اللحظة متوارياً خلف سور ما، ينظر إليّ ويبتسم، حتى وأنا أخونه كل لحظة يبتسم لي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

العجوز ينهض

العجوز الأنيق يدخل المكتبة العامة الآن، متمهلاً، مبتسماً، وحيداً دائماً، بصحبة كيس ورقي يحمله بيده، أراقبه من طاولتي في الزاوية القصية، يجلس، يتصفح بملل، أيَّ كتاب يصادفه على أقرب طاولة، العجوز ينهض، دائماً ينهض، يقترب من أمين المكتبة، يمد يده إلى داخل الكيس، يتناول حبة شوكلاتة، يبتسم أمين المكتبة ببرود، يمد يده ليأخذها، يضعها على طاولته، ويواصل تسجيل استمارات الإعارة. العجوز يخرج، ببطء شديد يخرج، يذهب إلى عمال بناء يقفون على الرصيف، يعطيهم، مبتسماً، حباتٍ أخرى، يتنهد العمال، بسأم يتنهدون، العجوز يبتعد، يمشي، يقعد على الرصيف، مع آخر حبة شوكلاتة، العجوز ينتظر طفلاً يمر، لا يمر أحد، يمر الليلُ والصمت والبرد، ولا يمر طفل. العجوز ينهض، يمشي، يقترب من شجرة سرو ضخمة، ينحني أمامها، يضع بالقرب من جذعها حبةَ الشوكلاتة الأخيرة، ثم يغادر مع كيسه الورقي الفارغ، مبتسماً يغادر، ومتنهداً مثل الآخرين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أن تَقعي أرضاً ويكون اسمكِ أماني

«مش إنت دكتور؟ آه إنت دكتور، مبيّن عليك، أنا بعرف إنك دكتور، بعرف وين عيادتك كمان، اعمل إشي لبنتي أماني، مشان الله يا دكتور، ليش واقف دكتور؟ عالج بنتي» صاحت المرأة في وجهي وأنا أقف معها أمام جسد ابنتها العشرينية الذي وقع فجأةً أمامي.

شارع نزلة البريد خالٍ من العربات والناس تماماً، الدنيا برد، والبنت على الأرض تصدر أصواتاً غريبةً ويخرج من فمها زبد، أطرافها متشنجة ومتصلبة، عيناها ثابتتان تنظران بشكل مركّز في حصوة صغيرة على الأرض.

وأنا الحامل في يديّ ربطة خبز وكتاب (توجهات ما بعد الحداثة) لنيكولاس ريزبرج، اكتشفت بشكل مباغت أنه من العيب والنذالة واللاحداثي والحرام ألاّ أكون طبيباً في هذه اللحظة، ركضت إلى أقرب بيت، طرقته وانتظرت قليلاً، فلم يفتح أحد، صوت المرأة لم يتوقف عن التأكيد الهستيري: «بس إنت دكتور عالجها، أنا بعرف إنك دكتور، حرام عليك يا دكتور».

Twitter: @ketab_n

لم أقدر على فعل شيء آخر، فأنا مدّرس أدب، لا طبيب، لم أقل ذلك بالطبع للمرأة الغاضبة اليائسة، بعد عدة دقائق نهضت أماني ببطء، مالت على كتف أمها ومشتا بتثاقل صاعدتين الشارع، بينما ظل صوت الأم يخفق في الشارع خلف خطواتي: بس هو دكتور، أنا بعرفه ليش ما عمل إشي؟

في صباح اليوم التالي فقط تذكرت أني في زحام صوت المرأة نسيت خبزي وحداثتي.

Twitter: @ketab_n

نصوص الغزلة والرصيف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

راتب الغامض المبحلق

منذ الصباح أفكّر في راتب، قبل عشرين عاماً جاء من قرية بعيدة وبسيطة إلى رام الله مهندساً يبحث عن عمل، لم يوفّق راتب في العثور على عمل، بعد كل مقابلة كانوا يقولون له: أنت تحملق كثيراً فينا قبل أن تجيب، أنت تلبس ملابس لا تناسب عملنا، في عينيك غموض لا يناسب وضوح عالم أرقامنا، أنت تمشي بطريقة تحرج زبائننا.

***

منذ الصباح أفكر في راتب.

جلست كثيراً مع راتب في شرفة نقابة المهندسين برام الله، ضحكنا وصمتنا وأعجبنا معاً (ببطل من هذا الزمان) لليرمنتوف، وقفنا وثرثرنا وشربنا القهوة والجعة خلسةً، ونظرنا إلى الناس تحتنا. وبكينا معاً على أصدقاء شهداء تركونا ومضوا إلى الخلود.

منذ الصباح أفكر في راتب، ربما لأنني رأيته بالصدفة أثناء مروري، أمس، بالسيارة في الشمال، يجلس بجانب حمار وكلب وغنمتين وخيمة وأربع دجاجات، وكثير من

Twitter: @ketab_n

الفراغ والتراب والصخور، وينظر صامتاً وثابتاً إلى الوادي، عرفته فوراً، وأكد ذلك مضيفي مبتسماً: هذا المهندس راتب.

***

إحنا إللي مش حلوات

أفكر في المرأة الثلاثينية غريبة الأطوار، التي أوقفتني في الشارع فجأة: «أستاذ كيفك؟ مش حضرتك كاتب؟، ممكن طلب؟ معلش، أنا مش مجنونة بس تعبانة اشوي، ممكن تحشيني في إحدى قصصك؟ بعرف أنا مش حلوة، زي ما إنت شايف، بس الحياة فيها الحلو ومش الحلو، صح؟ وأنت بتكتب الحياة زي ما حكتلي (هيام)، فاكتبني امرأة في قصصك، اكتبني مجازاً للجانب غير الحلو في الحياة، إحنا المش حلوات مظلومات في الحياة، والله كمان في كتابات الأدباء مظلومين، كون مختلف يا أستاذ وأنصفنا».

قالت لي الثلاثينية ذلك ومشت دون أن تنتظر إجابتي، تاركةً وجهي يتناثر في مهب صمت.

حاولت بالطبع أن أتذكر (هيام) فلم أفلح.

وسقطت السكين

قالت: أترقص؟ قلت: هيا نرقص.

اتخذنا وضع رقصة، فهبت ريح مفاجئة وخطفت خطواتنا وبلعتها.

Twitter: @ketab_n

قالت: أتغني؟ قلت: هيا نغني.

اتخذنا حالة غناء، فرفرفت سكين، وخطفت صوتينا وشقته أنصافاً أنصافاً.

قالت: أترسم؟ قلت: هيا نرسم.

واتخذنا هيئة لون، فهجمت حرب ودمرت إطار اللوحة.

قالت: أتكتب؟ قلت: هيا نكتب.

اتخذنا صورة كتابة، فهجمت الشرطة على القلم وحطمته.

قالت، أتحلم؟ قلت: هيا نحلم.

حلمنا وحلمنا وحلمنا، فانكسرت الحرب واختفت الشرطة وماتت الريح وسقطت السكين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لماذا أكره هذا الرجل؟ لماذا يكرهني؟

لماذا أكره هذا الرجل؟ لماذا يكرهني؟ مع أنني لا أعرفه ولا أعرف حتى اسمه، هو كذلك لا يعرفني ولا يعرف اسمي، كل ما في الأمر أنني أمرّ عليه ويمرّ عليّ كل صباح، في طريق كل منا إلى عمله، نظرة واحدة غير مقصودة، وتبدأ كراهيتنا، يستمر الشعور الأسود عدّة دقائق أشعر فيها بقلبي يكاد يتمزّع غيظاً غير مفهوم، كذلك أراقبه هو وعيناه تستشيطان توتراً ودموع ألم.

كنت أظن في البداية أن نكدي الصباحي ونكده هو ما يسبب هذا النفور الغامض، فيما بعد اكتشفت أن سعادتي الصباحية وسعادته لا تمنعان كراهيتنا الصباحية لبعضنا البعض. غريبٌ أمرنا، ناقشتُ نفسي كثيراً: الرجل الخمسيني المكروه، لا يشبه أحداً أكرهه، وملامحه هادئة لا قسوةَ فيها، وحتى الوجه القاسي لا يترك عندي انطباعاً مباشراً عن روح صاحبه، وأنا شخصياً لا أتعامل مع الوجوه من منطلقات مسبقة، ولديّ تصوّر قديمٌ قادمٌ من تجارب عن قناعتي بعدم تطابق الملامح مع نفسيات أصحابها، فصاحب الوجه الجميل قد يكون شريراً وفظّاً، وصاحب الوجه القاسي قد يكون أميراً وطيباً.

Twitter: @ketab_n

لماذا يكرهني هذا الرجل؟ لماذا أكرهه؟ ما حدث بعد عدة أشهر من النظرات الصباحية المغتاظة لن تصدقوه؛ وقفنا أمام بعضنا البعض كثورين هائجين:

ـ «شو إللي بدك إياه يا رجل»؟

ـ «إنت شو إللي بدك إياه؟»

ـ «اِسمع، اِبعد عن طريقي أحسنلك»

ـ «إنت اللي أبعد ولاّ بنفيك من الوجود».

لطمنا بعضنا البعض بالعيون، بطحته في خيالي، وكسر أنفي في خياله، ثم واصلنا الطريق ونحن نزحف على أعصابنا المنهارة. أكثر من مرة حدث ذلك، لكن الذي حدث في باريس، أذهلنا معاً، كان الرجل الخمسيني الذي أكرهه، يجلس في مقهى (دوروا) وحده، كان الطقس بارداً جداً في الخارج حين دخلت، فوجئت به، كنت وحيداً في باريس وأنتظر صديقةً لن تأتي، وكان هو وحيداً ينتظر شخصاً أظنّه لن يأتي، فلسطينيان وحيدان وسط عشرات الأشخاص غير الفلسطينيين، في بلاد باردة، لم أشعر بنفسي وأنا أتقدم نحوه، نهض وابتسامة واسعة وعميقة ترقص على محيّاه:

ـ «أستاذ كيفك، فرصة طيبة أشوفك هون، أهلاً أهلاً، إنت زمان هون؟»

ـ «إلي أربع أيام، عندي ورشة عمل وبقضي وقت فراغي هون لحالي، وإنت؟»

ـ «أنا بزور صديقة تونسية، وراجع بعد أيام».

ـ «ما أحلى فلسطين أستاز».

ـ «آه، والله ما في بعد بلادنا».

Twitter: @ketab_n

ـ «شو تشرب أستاز؟»

ـ «لا إنت إلّلي شو تشرب؟ أنا عازمك».

بعد أسبوعين فقط، عدت إلى فلسطين، في أول صباح رأيته قادماً من بعيد، لم أستطع أن أفهم نفسي، شعرت بعطش يديّ لصفع ولطم، اقتربنا من بعضنا البعض، تبادلنا النظرات النارية، تجاوزته، وأنا أغلي، أحسست بيد تمسكني من يدي:

ـ يا بني آدم إنت ليش بتكرهني؟.

ـ إبعد إيدك، إنت اللي ليش بتكرهني؟. خنقنا بعضنا بالنظرات النمرية، كان وجهه قريباً جداً من وجهي، واستطعت أن ألحظَ في وجهه شبهاً ما من وجهي، وأعتقد أنه هو الآخر لاحظ شبهَنا، فكَكْنا نظراتنا المتخانقة عن بعضها البعض، ثم واصلنا الطريق، يأكلنا الغيظ، وتدمرنا الحيرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صديقي إبراهيم: خذني إلى منفاك أريد أن أعود إلى فلسطين

ما أن ألقيت على صديقي الكاتب الفلسطيني المقيم في دبي إبراهيم جابر تحية صباح «فيسبوكية» حتى انهمر من حيث لا ندري هذا البوح الحميم، من سماء الحلم على أرض القلب، قلنا كلاماً كثيراً عن المنافي وفلسطين والكتابة والمرأة، وكان هذا الدفق المتلاطم الاعترافات والأحاسيس، الذي غاب فيه اسمانا، وذابت فيه هويتانا، صرنا مجرد صوتين فلسطينيين أحدهما يعيش رفاهية الإقامة في بلاده، والآخر يعيش رفاهية الإقامة في المنفى، كلا الصوتين يرفض واقعه، يحن إلى نقيضه، كلا الصوتين يرتكب طيش الفكرة وعبث الصورة ولعبة المجاز، بحثاً عن حقهما في الطيش والعبث واللعب كبشر عاديين. هنا هذا الحوار الذي تحول إلى نص، طغى فيه صوت البلاد على كل الأصوات، وتشردت الأسماء في غابة احتشاد البلاد بأشجارها البهية، وفيض الجسد بأزهاره المجنونة»:

Twitter: @ketab_n

«قال: قهوتك بطعم فجر.

قال: صباح البلاد يا صديقي.

قال: البلاد التي تنتظر شهقتك عند أول جرعة من أريحا.

قال: قبل قليل وعدتني صديقة أن تصوّر لي مخيم عقبة جبر الذي غادرته وعمري سبعة شهور وترسل لي صوره، لم أستوعب الفكرة، ولم أتخيل أنني سأقوى على مواجهة الصور.. فكيف سأقف أمامه مباشرة؟!

قال: ابن السبعة شهور إذن هناك، غداً سأذهب إلى أريحا في رحلة طلابية، سأبحث مع طلابي عنك وعن بيتك، سنتعرف إليك من صوتك، سنسمع صوتك تبكي من هدير القنبلة التي انفجرت في الجوار، سيكون الزمن طوع إصرارنا، سنحملك إلى مكان آمن مع العائلة حتى تأمنوا القنابل والموت والرحيل. وبذلك نلغي ترحيلك وتبقى هنا في البلاد.

قال: أنت أكثر من يفهم معنى أن تقتاد واحداً من أبطال قصصك إلى خارج الكتاب. نحن عشنا يا صديقي عمرنا في رواية .!

لسنا أكثر من حبر .

قال: سنسيطر على المؤلف، نقيده في شجرة، ثم نفتح الصفحات بأناة أمٍّ، وحرص بيارة.

قال: قل لي بجد؟ في فلسطين في تراب عادي وناس وماء وسماء عادية؟ عادية مثل هذه التي عندي؟ في شوارع وسيارات وأصوات ناس وسوق خضار؟ في ناس بتنام

Twitter: @ketab_n

وبتصحى؟ وأولاد ومدارس؟ في أرض حقيقية بتلمسها هلا بإيدك؟ بالله تجرب هلا .. هلا مد إيدك، لمستها؟؟ لمست أرض فلسطين؟؟ انتو بجد موجودين؟

قال: الكلام هنا مشلول أمام سؤالك يا صديقي ولا إمكانية لكتابة الدمعة.

قال: أنا أبكي... أبكي لماذا كانت فلسطين قاسية إلى هذا الحد.

قال: قاسية علينا لأنها حرمتنا من كراهيتها.

قال: هل كان على المسيح أن يحتمل كل هذه المسامير في جسده ليصير جميلاً وتتغزل به الجميلات.

قال: كأن جمال البلاد مقيد بدمها، أليس هناك متسع لفلسطين طبيعية لا نحنّ إليها ولا نبكي حباً لها لأننا اعتدناها مثل قبلة زوجاتنا في الصباح؟

قال: زوجاتنا اللواتي ما أن يصبن بدوخة إرهاق من ضجيج الأولاد وتعب مهام المنازل حتى نهرع إليهن مرتجفين، وهكذا هي فلسطين التي أحلم بها عادية، موجودة دون حنين أو توتر، أعيشها بصمت وتعيشني بصمت، وما أن تتألم حتى أصيح فجأة آه يا بلادي.

قال: لا تعتذر عن حزنك، فهو وقتك يا صديقي هو وقتك.

قال: فلسطين لا تصلح زوجة، هي عاشقة، وعاشقة مستبدة وقاسية و(المحب ينتحب).

قال: ولكنك في جوّاك تصلّي (اللهم زدنا في عشقنا هذا رَهَقا(.

قال: علينا أن نتزوج فلسطين جميعاً ونهدأ مثل العشاق الذين يهدؤون بعد الزواج،

Twitter: @ketab_n

فعشقها مدمر مدمر.

قال: أعرف أعرف يا شقيقي، الطريقة الوحيدة لتعايشٍ عاقلٍ وهاديءٍ مع الحب هي قتله بالزواج.

نحن لا نقتله، نحن نحوّله أو نعقلنه لأننا لو لم نفعل ذلك لمتنا عشقاً، والحياة أوسع من العشق.

قال: أعطني بصيصاً من حنينك وخذ بصيص ملمس من جلد رام الله.

قال: أريده مجنوناً، يتقافز في دمي كمن يتخبطه الشوق، وأريده أن يوجعني أكثر . هذه اللذة الفائقة الألم.

قال: وأنا أريد المنفى ولو قليلاً أريد أن أرى فلسطين من الخارج لأحبها حباً آخر.

قال: وحين يصير الحب / الوطن زوجة سنبحث عن بلد محتل آخر نخرج في تظاهراته ونتخذه عشيقة مرهقة.

قال: الوطن الفقيد هو تماماً ذلك (المريض حتى يشفى والصغير حتى يكبر والغائب حتى يعود).

أحتاج إلى المنفى لأعود، لم أعد إلى فلسطين حتى الآن على الرغم من أنني لم أغادرها أبداً. امنحني حفنة من ظلام منفاك.

قال: وأعطني أنت قليلاً من تراب البلد لأدوسه بقدمي وأبصق عليه !!

قال: ربما، فعلاً، المنفى الوسيلة الوحيدة الناجعة لتحب البلاد كما يليق بها.

Twitter: @ketab_n

قال: سنلتقي إذن يا صديقي في منتصف الطريق، هناك عند حدود الحنين والغضب. لنتبادل الأثاث، تعطيني أنت ثراء المنفى وأعطيك رائحة البلاد، ثم نشرع معاً في البكاء ونواصل طريقينا.

قال: قلت لك مرة إنني لا أعرف طعم الـ (هنا) الذي تريد أن تعطيني إياه!! ليت لي (هنا)،... لأتركه وأهاجر بمحض الدلال إلى (هناك).

قال: وبعد سنوات، ستمل أنت من حب البلاد، ستشتاق إلى ضياء المنفى، وسأشتاق أنا إلى فاكهة البلاد. سئِماً من تفاح المنفى. وهكذا تستمر الحياة، منفى ووطناً، وطناً ومنفى، ونصبح طبيعيين جداً.

ستعرف طعم هناك حين تكتشف طبيعية طعم الهنا.

قال: تقصد أننا سنغادر الرواية ونمشي في الأسواق كأي بشر غير فلسطينيين!! هل سنتقن مشية العادي؟ هل سيتركنا الشعراء !!

قال: تماماً سنخلع قمصان الرواية وستحترق أصابعنا مثل البشر حين نلمس النار ـ الحرية، وسنشتم بحر بلادنا لأنه عكر، وسنتذمر من تقليدية نسائنا، وسيخيب ظننا بالجمال الذي كنا نظنه خارقاً للأنهار. في بلد بلا أنهار.

قال: وهل تضمن رد فعل الراوي حين نغادر ورقه وكتبه المقدسة التي قامت على أكتافنا؟ ولن يجد العرب مادة للتجارة والخلود والبلاغة، ستسقط اللغة في شحوب الاكتشاف والوعي الجديدين وسينتحر سميح القاسم. وسنزداد يقيناً بنبوّة محمود درويش الشعرية.

Twitter: @ketab_n

قال: ربما حينها سنصاب بالضجر، ونقود انقلاباً ما في بلد ما لنصنع أفقاً لقصيدة تتفلت... هذا بالضبط ما حصل مع الطاقة الكونية فقادها إلى خلق فلسطين !!

قال: سنصاب بالتأكيد لأننا بشر نضجر ونحنّ، الضجر هو صفة بشرية والحنين كذلك، أما الحنين المستمر دون ضجر فهو مرض خطير بل هو موت مهين.

قال: ونصير أنت وأنا عجوزين، شحاذين، نبيع الأدعية وقطع القماش الخضراء عند مقام محمود، ليعلقها العابدون المتضرعون على باب المقام.

قال: سنكتب عن الله وعن طريقتنا في تقبيل الحبيبة وقد نحنّ إلى فلسطين ببلاغتها وسوبرمانيتها وإلى بطولتنا المجنونة الآفلة وسنتضامن مع شعوب أخرى محتلة. وقد نستدعي ابن رشد لنجلسه مع ابن تيمية لنصنع معركة مسلية ونتفرج على جنون الفكر.

قال: لا لا... سنصير يوماً ما نريد: بشراً بشراً بشراً.

قال: سنتقاتل على امرأة مفرطة الجمال بنهدين كبيرين وشامة على الخاصرة، سأشتمك وتشتمني، هكذا يفعل البشر البشر البشر.

قال: ستختارك أنت طبعاً، فأنا دائماً الرجل الثاني، حينها سأتهمك بأنك فلسطيني من عصر البلاغة.

قال: هل أجد معك كتاباً لعلاج العاشقات بالأعشاب؟ تسألك امرأة عابرة يومها، فتشير عليها بـ (زهر اللوز)، وتساومها على ليلة عابرة .!

قال: ثم سأعتذر لك كبشري، وليس كفلسطيني، فالفلسطيني لا يعتذر.

Twitter: @ketab_n

قال: ولن أقبل اعتذارك، أو أقبله، ثم أخونك معها.

قال: سأغضب ويجن جنوني، سأمزق كتبك في ميدان المنارة.

قال: وسأسترق النظر إلى كتفيك العريضين، وشعر صدرك، وأقول :ربما لهذا ستختاره!! فأنا رجل نحيل لا يقوى على حمل امرأة إلى مصيرها.

قال: ثم نتصالح وأعزمك على فول في مطعم القناعة برام الله، وهناك تعرفني على صديقتك الساحرة، وما أن نخرج كل إلى عمله حتى أرسل إليها رسالة نصية: إنه يكرهك. فاحذريه.

قال: وسأرتّب سهرة في البيت على شرفك، وأقول فيك مديحاً هائلاً ورفيعاً، وأنت لا تنتبه أنني لا أسمع قصائدك، وأحكّ ركبتها بركبتي من تحت الطاولة .!

قال: والمضحك أنك لم تنتبه إلى أنني أحك ركبتها الأخرى بقدمي الحافية.

قال: فنحملها معاً إلى سرير نَص ونشرع في كتابتها.

قال: هذا ما يفعله رجل قنوع مثلك !!

قال: أما أنا فعليّ قراءتها أولاً.

قال: قرأت ركبتها ويدها، أما عيناها فحفظتهما عن غيب قبلك.

قال: عليّ أن أحملها إلى سرير القراءة قبل طاولة الكتابة !.

قال: نقرؤها معاً عبر كتابتها، فالكتابة قراءة أيضاً.

قال: ونسألها: في أي نص اخترتِ أن تعيشي (يا بنت الحلال)؟

Twitter: @ketab_n

قال: لدي حل، اقرأها أنت وأكتبها أنا.

قال: في نص القراءة أم نص الكتابة؟

قال: الذي لا يقرأ جيداً لا يكتب جيداً.

قال: فترمي بعصاك.

قال: كن قراءتي إذن؛ حتى أكون كتابتك.

قال: لستُ شغوفاً بالكتب الجديدة التي لم يقرأها أحد قبلي.

قال: الكتب الطازجة الخارجة للتو من المطبعة تبدو كفتاة عشرينية ساذجة، لن تقدّر قارئاً عجوزاً يضع نظارات على عينيه ليتحسس الشامة المراوغة.

قال: خذها إذن، اقرأها بينما أدخن سيجارة الهزيمة في شرفة الحيرة.

قال: سأتجسس على شفتيك وهما تتمتمان نهديها.

قال: وسأقرأ كتاب الغيوم فوقي؛ لأستخلص حلولاً لشتائي الموحش.

قال: وسأقتلك!! وأدّعي كفلسطيني لئيم أنك كنت تخابر العدو.

قال: أي قتل، أي فلسطيني؟ ألم نتفق على أن نكون بشراً أحراراً من معطف فلسطين؟

قال: نهدها يسيل على شفتي الآن! لم أذقه منذ أسبوع. سأشكو لك وستبكي عَلَيّ.

قال: ألسنا نستعير فلسطين كلما احتجنا حيلة مقنعة؟؟

قال: أما أنا فسأحلم بنهدها، فالحلم أجمل، سأعود فلسطينياً كما عدت أنت قبل قليل، سأستعير لذة الحنين من سياق فلسطين القديمة.

Twitter: @ketab_n

قال: ستمل أنت نهدها كما مللنا جميعاً. وستنام أنت شبعاً وسأبقى أنا عطشاً ولكن يقظاً، وهكذا نعود إلى ثنائية العطش والشبع كفلسطينيين تعيسين.

قال: لن أملّ! لن أملّ... فهو كل يوم في شأن، تبارك الذي يهتز في حريرها كدفق الماء النازل من قهقهة الشلال.

قال: ربما أنك نسيت شيئاً؟

قال: أنت تعود فلسطينياً من عصر البلاغة.

قال: معطفها لا يزال على الطاولة. لبست كلامك قبل أن تخرج. سيقتلها البرد في شوارع المجاز.

قال: كما قتلني وقتلك الحلم يا صديقي.

قال: الفرق بيني وبينك واضح! أنت تريدها لك، وأنا أريدها لها..

قال: أريدها لي ولك ولها.

قال: فأنا فلسطيني جديد، لم تصر على النسيان؟

قال: والفرق بيننا واضح! أنت تريد، وأنا أترك لها أن (تريد(.

قال: كيف تريدها لها وأنت مجنون نهدها؟ اتركه قليلاً ليتنفس يا رجل؟

قال: أنا في الشرفة وحدي مع الغيوم تذكر ذلك، أما أنت فممتلئ بها .

قال: أنا صديق الغيوم وأنت صديق نهدها أو طاغيته.

قال: تركته.. لكنني خبأت الهواء كاملاً في قميصي .

Twitter: @ketab_n

قال: لم تتركه لقد خنقته في الشعر والكلام.

قال: أنت تعود لخطاب الفلسطيني الضحية.

قال: اتركه غيمة ترفرف فوق نصك القادم.

قال: غيمة لا تهطل.

قال: أنا في الشرفة وحدي مع الغيوم معك معها معي، مع الله، مع نهايتي.

قال: بينما أنت مسحوق في حضورها.

قال: اتركها لتراها.

قال: الشرفة ذراع بيت وحيد يستغيث.

قال: تعال عندي في الشرفة، أنتظرك، سنغلق الباب ونلمس الغيوم، نلمس غيابها.

قال: ستطرق هي الباب بشدة، افتحا لي أيها الخائنان المجنونان.

قال: عشتُ عمري أبحث عنها، لأتركها الآن وأقف كشاعر ساذج في الشرفة أرسمها، وهي النائمة حدّي بكامل قوامها؟

قال: لك البلاد بكامل قصائدها، ولي امرأة وحيدة من جموع الحنين الحاشدة.

قال: تبحث عنها؟ كما بحثت عن فلسطين أيها العاشق المجنون؟

قال: الفرق بيني وبينك أنك «إيثاكا» وإني الطريق إليها.

قال: قالت الفراشة: لو نظر تحت قميصها لرآنـا .!

قال: هأنذا أعود فلسطينياً تعيساً وأنتظر الطريق لأكونها.

Twitter: @ketab_n

قال: مللتُ صورة المحارب الذي يأكل من رمل الطريق إليها، وسراقة يركض خلفه تلمع في عينيه الأساور.

قال: أما أنا فمللت من جملة: إن الله معنا، على سراقة أن يظل يركض وعلى العنكبوت أن يعيش أطول.

قال: أريد كُليباً حياً!

قال: أريدني حياً في بلادي.

قال: وأريد أن أهتف باسمها فتقفز حيةً تسعى !

قال: عدنا إلى الهتاف؟ أرجوك أخرِس لغة الشعار في قلبك الكبير.

قال: أنت حي في بلادك/ نا، أما نحن فهي فينا مجرد هتاف طويل مبحوح عمره ٦٠ سنة.

قال: ادخل من الشرفة. أخاف عليك. الجو بارد.

قال: لست حياً أبداً في بلادي ـ بلادك، أنا مجرد رغبة في الهرب إلى المنفى لأرى بلادي. لأعود إليها.

قال: ادخل إلى الشرفة؛ أخاف عليك؛ فالجو في الغرفة مفرط الطمأنينة.

قال: أنت شغوف بالشرفات إذن.. لأنك لم تجرب أن تنام في شرفة معلقة بلا بيت. هكذا.. هكذا.. هكذا يا الله، شرفة معلقة على خاصرة الهواء بلا بيت .!

قال: الشرفة أكثر أمناً صديقي، الشرفة التي تطل على الغيوم والريح الغيوم والريح، أهكذا تهرب من غرفتها تاركاً فمك على نهدها؟

Twitter: @ketab_n

قال: أما أنا فسأقفز عن الشرفة إليها.. إلى روحي.. إلى الريح.. إلى الغيوم إلى المجهول.. ولن أنطق بكلمة سلام أبداً فلا حياة مع السلام.

قال: نلتقي إذن في الشارع، أنت تخرج من باب بيتها بسلام وأمان، أما أنا فأقفز من شرفتها بجروح وأحلام.

قال: أغادر وقلبي قد قُدّ من دبر ومن قُبل.

قال: خذني إلى منفاك، أريد أن أعود إلى بلادي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هل قتلت مخلالات فرج محمود درويش؟

كلما مررت بفرج آذن مدرستي في ممرّ الطابق الثاني أسأله بإلحاحي الوغد: يا فرج، هل من قهوة تسند روحي؟ يتأفف فرج: يا أستاذ القهوة بس الصبح وبعد الحصّة السّابعة مش هيك اتفقنا؟ بعد كلمات فرج التوبيخية أخرس وأحشو فمي بمنهاج مدرسيّ وأذهب إلى حصتي القادمة.

غريب ولا يبتسم أبداً هو فرج، حتى حين ينكّت، غريب وقريب، ونحيل جداً لدرجة أني لا أرى له مؤخرة، هل يذهب إلى الحمام؟ وكيف يخرج فضلاته؟

أمضي وقتاً طويلاً معه، في أوقات الفراغ وفي الاستراحة، لا أفارق فرَجَاً. فرج يقول كلّ ما يحس بأنه يجب أن يقال، يغضب حين يجب أن يغضب، لا يمدح أحداً ولا يذمّ أحداً. يبنيني فرج، يبنيني بطريقة لا أفهمها «كنت يا أستاز ألبس بلوزة شتوية في آب وأنا أحرث حقلي، كان الناس يمرون عني وهم يسخرون: بلوزة شتوية في آب؟ كنت أسخر منهم في سري وأنا أقول لهم دون أن يسمعوني ولا يهمني إن سمعوا أم لا: أنا أقنعت نفسي أن الدنيا برد، فأنا بردان الآن».

فرج يقتلني بسعادته وهو يحدثني عن الأفعى التي قرصت ابنه وتركها تمضي دون

Twitter: @ketab_n

أن يحاول قتلها بل ومنع زوجته من قتلها: يا أستاذ الأفعى قامت بعمل يؤذينا صحيح، لكنها كانت تعبّر بصدق عن نفسها وعاداتها وحياتها وطريقتها في العيش.

يفاجئني فرج وهو يقول لي: «أستاذ أنت تسمن بشكل غير لائق، اعتن بصحتك». أغضب، ولا أرد عليه، إذ من هو هذا غير المرئي الذي يفاتحني بموضوع شخصيّ جداً؟ لكني في البيت أتذكر كلماته وأمتنع عن العشاء (مؤقتاً طبعاً).

كثيراً ما يطرق فرج باب حصتي، يدخل ويجلس مع الطلاب، يستمع باهتمام شديد، يناقشني، ويناقش كتابات الطلاب ويطلب مني أن أهتم أكثر بالصامتين من طلابي.

حين أعطيه مبلغاً معيناً نظير تنظيفه لبيتي، يعيد لي نصف المبلغ وهو يقول لي: كثير هيك أستاذ حرام ما «تبعزق» مصاريك. وآخر صدمات فرج قوله فجأة ونحن نجلس جميعاً في غرفة المعلمين: محمود درويش كان يموت في مخللاتي، يضحك المعلمون، بينما لا أضحك أنا، أقترب منه وأطلب تفاصيل: أستاذ أنا اشتغلت في مطعم «الفلاحة» سنين طويلة وكان محمود الله يرحمه دائم التردّد هناك، وكان يسأل وهو يأكل بتلذذ: من صنع هذا المخلل؟ فيشيرون نحوي، ينظر إليّ وهو يبتسم، ويشكرني.

ـ فرج صديقي يؤسفني أن أقول لك إن المخلل سبب رئيس للنوبات القلبية.

ـ شو بتقصد يا أستاذ؟

ـ يعني مخللاتك هي التي قتلت محمود يا فرج.

جُنّ جنون فرج، أستاذ شو بتحكي مستحيل مستحيل.

عرفت فيما بعد من فرج أنه لم ينم ليلتها وأنه ذهب في صبيحة اليوم التالي إلى

Twitter: @ketab_n

ضريح محمود وطلب منه أن يسامحه فيما لو كان صحيحاً ما قاله الأستاذ زياد.

مولع فرج بالحيوانات، وخاصة الخيول، مولع حد الهوس: أستاذ الخيل وفيّة جداً مثل الكلب، والرسول أحب الخيول وأوصى بها. وأنا حين أركب الخيل، أصبح مثل الأطفال، أصرخ وأنادي على شيء ما لا أعرفه.

يشارك فرج في مشاريع استثمارية صغيرة جداً، فهو يأخذ زجاجات الزيت البلدي من معلم آخر، ويبيعها ويربح في كل زجاجة شيكلاً واحداً.

من نوادره الغريبة، اعتقله الاحتلال مرة، وعذبه المحققون ليعترف على أصحابه، فاعترف على ٧٠ شخصاً، وحين ذهب الاحتلال ليعتقلهم، فوجئ بأنه يعتقل رجالاً منهكين، ومسجونين في سجون التعب والهرم، كانوا في الثمانين من أعمارهم.

أحب حياتي مع فرج، أحب فرج في حياتي، يخفف هذا النوراني الصافي مثل الشعر الصافي من تفاهة المكان وعدائيته ولا معناه، أستطيع أن أقول إني أتعلم في مدرسة اسمها فرج، فرج درسي اليومي، آخذه على يديّ حكاياته الغريبة، وتفاصيله التي لا تُفهَم في هذا الزمن المعادي لكل شيء صادق ونقي.

تخيلوا لو كل الناس في العالم هم فرج، لنعترف، حتماً سيكون العالم مملاً من غزارة وتكرارية وثبات طاقة الحب والصراحة والحقيقة، فنحن نحتاج الشر لنستمتع بوجود الخير، فرج هو خير يومي.

أحب حضور فرج في عالم الشر والكذب، أحبه وهو يكون نفسه مع المدير والمعلم وكل الناس، أحبه وهو يشرب شايه بصمت، محدّقاً من خلال الشباك بحصان يبول في حاكورة خلف المدرسة.

Twitter: @ketab_n

أحبه نقيضاً لكل طريقة حياتنا، أحبه حلمنا الكبير بالانسجام والتصالح مع الذات، أحب وجهه الصنمي العظمي الذي نتجاهله، ونخافه، بل ونضحك عليه.

لا أتوقع أن (سارتر) كان يتكلم عن شخص آخر غير فرج حين قال في كتابه الشهير (الوجود والعدم): «إذا كان الإنسان على حقيقته، يصبح سوء النية غير ممكن على الإطلاق، وتكف الصراحة على أن تكون مثله الأعلى، لتغدو وجوده».

حبيبي فرج: شكراً لنافذة الصدق التي تشبه يوم قيامة مصغّراً، هذه النافذة التي تفتحها لي كل صباح في مكاني هذا الذي بلا نوافذ.

Twitter: @ketab_n

رجل منشق

أنا كل شيء هذا الصباح: أنا ساحة كنيسة في إيطاليا، وقبة مسجد في السودان، وسقف كنيس في اليمن، أنا كينونة الأفعى التي لا نفهمها، وغضب الفراشة الذي لا نسمعه.

أنا كل شيء هذا الصباح: أنا عماء عقل النار، وطيبة قلب قاتل، ونعومة ملمس وردة، وخشونة ملمس شوكة.

أنا كل شيء هذا الصباح: أنا شهوة المراهق، وتنسك الراهب، وصخب حانة، وصمت معبد بوذي، أنا حيرة عاهرة، وإيمان قديسة.

أنا كل شيء هذا الصباح: أنا موت شخص، وميلاد آخر، تشرد شاعر واستقرار موظف، أنا مريول تلميذة سعيدة، وعطر مسنة وحيدة. أنا كل شيء هذا الصباح كل شيء، كل شيء... .

***

لتلك الرائحة ذاكرة جميلة في روحي، رائحة دم مجبول بالغبار والعرق والإسمنت

Twitter: @ketab_n

يبزغ خفيفاً من إصبعي بفعل مسمار ضل طريقه من الخشب إلى يدي، كنت منهم في زمن بعيد.

لا أجمل من أن تجلس في صباح مبكر في سيارة (فورد) ممتلئة بشكل غير قانوني بعمال المخيم ـ شباناً وكهولاً ـ الذاهبين إلى ورش البناء المتوزعة في رام الله وخارجها، لا أجمل من أن تقيم عشر دقائق في سعالهم الخشن ونظراتهم المتشككة وقهوتهم التي يندلق نصفها على أفخاذهم، ودخان سجائرهم الوقح، ونكاتهم التي لا تضحكني، لكنها تقويني وتقويهم، في أحضانهم يستقر طعامهم في أكياس سوداء، وفي حضني تستقر كتبي في حقيبة سوداء. كنت منهم في زمن بعيد، كنت منهم.

أهبط من السيارة، وتهبط معي رائحة الباطون المتجمد في ملابسهم.

عشر دقائق مع رائحة العمال، مع رائحتي التي استرجعتها بعد طول كتب ومقاه ومدن.

في البيت أجلس الآن مع ضيفين عزيزين: رائحتي القديمة، وقهوتي.

كنت منهم في زمن بعيد، كنت منهم.

***

رجل منشق، بملابس منشقة وملامح مجروحة، سأراه الآن في الشارع وهو يحرّك يديه وكأنه يفتح نافذة في الهواء، الرجل الضيف الثقيل الذي ليس من عالمنا يعتقد بذهن المنفصلين والطازجين أنه يرى ما لا نرى، رجل سأحبه وأخافه بعد قليل، سيبزغ من منعطف شارع الحسبة فجأة كما عاصفة صامتة، كما خبر مزعج، سيظنه الناس مجنوناً، وسيبتعدون عنه ويشمئزون من رائحته، الرجل الشارد والشريد،

Twitter: @ketab_n

سيفتح أمامي نوافذه ويمضي، بعد ابتعاده سأقترب من نافذة من نوافذه وسأرى ما يرى، وما لا ترون، سأشرع وحيداً في الغناء.

وستظنونني مثله منشقاً وضيفاً ثقيلاً ومجروحاً وشريداً ومنفصلاً تماماً، لكني سأكون طازجاً مثله تماماً، وسأواصل غنائي ولن أهتم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مات كروان مات كروان

مات كروان، مات كروان، المتسوّل العجوز، الذي تعرفه أرصفة رام الله، معرفة الله نقاط ضعف عباده، نصف ضرير، بنصف مكر، وكثير من النحول والصمت، بعصا غليظة، وشتائم جاهزة، بصوت أعوج، لنا نحن أطفال المدينة، حين كنّا نطلب منه أن يصفر كالكروان، كان يمد يده طالباً الثمن، نمد له أيدينا لنعطيه فراغنا، فترغي يده وتزبد عصاه، فيطوح بالعصا بحركات عشوائية تصيب أحياناً قدم أحدنا أو رأس آخر. مات كروان، مات كروان، قفي يا رام الله دقيقة اعتذار وذهول؛ لغياب كروانك، أما أنتِ يا جراح يدي، فانحني دقائق كاملةً من الألم احتراماً لعصا المتسول الفنان. مات كروان، مات كروان. لا أعرف اسم كروان، أو بلده، لا أعرف كم مرة كان يضحك في اليوم، لكن بموته مات شيء داخلي، جزء من رام الله اختفى، نقص الشارع أغنيةً، نقصت الأغنية لحناً، سقط نصف اللحن، عرجاء يا رام الله، عرجاء وضريرة دون عيني كروان نصف العمياوين، ودون قدميه نصف الناهضتين. معلماً كان كروان وممراً لأقدامنا العبثية السريعة والمراهقة وسبباً لضحكاتنا ونكاتنا ومبعثاً لتأويلاتنا وفلسفتنا، لكن علاقتنا به اختلفت فيما بعد، لم يكن يتكلم، كان يهمهم، كان يَحدث

Twitter: @ketab_n

أن نقف إلى جانبه صدفةً كأننا نقف قرب جدار أو سيارة، نحكي لبعضنا عن أسرارنا العاطفية وعن ترتيبات وطنية مثل توزيع بيانات أو كتابة الشعارات على الجدران، ظانين أنه لا يسمع ولا يفهم، لكن توقعنا انكسر، كان كروان يفهم ويرى ويعرف ويقارن ويحلل ولا يتحدث. مرة وبشكل مفاجئ صعقني وهو ينفجر في وجهي: إنساك يا ولد من صاحبتك، بتخونك مع صاحبك أبو شعر. ومرة أخرى: صاحب المحل اللي إقبالكم بسب عليكم في ظهوركم لما تطلبوا منه يسكر محله في وقت الإضراب. انتبهوا له. يا هُبل. ومرة أخرى: في جيش في الإرسال انتبهوا يا أولاد. صار كروان دليلنا وصديقنا ومحللنا، نضجنا بفضله بسرعة وقفزنا نحو ربوة أسئلة الحياة المبكرة وعرفنا مأساة البلاد بسرعة. سأكتب يوماً ما عن غرباء المدينة الغامضين، عن متسوليها ومعتوهيها، فذاكرتي تنزّ بهم، بملابسهم، وروائحهم، وتقزز أصحاب المحال منهم، وظلالهم المنكسرة والهادئة على حيطان العمارات، وأحذيتهم وصمتهم وصبرهم على شتائم الصبية، وأصواتهم الضائعة والوحيدة، وأرغفتهم المحشوة بحبتي فلافل يابستين، وخجلهم وخوفهم وانسحابهم في آخر الليل إلى بيوت مهجورة أو كهوف قريبة في الجبال المحيطة بالمدينة، وسخرية وخوف المارة منهم، وريبة جنود الاحتلال تجاههم، سأكتب عن البرد المقدس الذي كان ينام بجانبهم، وعن حزنهم الناضج الذي كانوا يتغطون به. سأكتب عن كروان صوت المدينة القتيل.

Twitter: @ketab_n

بيتان

صباح بيتين فلسطينيين في رام الله: في الأول ذهول صباحي مستسلم، يشبه المرض، لا أحد يصعد الدرج، لا شاي في المطبخ على النار، لا رائحة بيض مقلي، الهاتف جثة، لا تلفاز مفتوحاً، لا أحد، لا شيء يمشي في الممر، لا شبابيك مفتوحة، أمٌّ ممددةٌ في السرير بجانب جثة هامدة لكائن اسمه الانتظار، أب جالس بصمت مخيف في عتمة الصالون الصباحية، يحدّق في الفراغ، إخوة وأخوات يقتلون برد الألم بوهم نوم.

في الثاني: صوت أقدام مرحة تتحرّك بين المطبخ والصالون... أصوات تنادي على بعضها البعض، جرة ذكريات وحكايات تندلق، ألبوم صور قديمة يفتح، إبريق شاي يغلي، أخت سعيدة تصنع فولاً بيتياً للأخ المحرر، زغاريد ورقص في محطة فضائية، خطوات غزيرة لأطفال تصعد بمرح الدرجات، وشبابيك على مصراعيها ودهشتها السعيدة مفتوحة.

صباح بيتين فلسطينيين في رام الله. كنت في البيت الثاني وسمعت صمت البيت الأول. خرجت من البيت الثاني وطرقت باب البيت الأول: لم يفتح أحد.

Twitter: @ketab_n

فلسطين: بيوت تفتح أبوابها حتى قبل الطرقة الأولى، وبيوت لا تفتح أبوابها حتى بعد زخات من الطرقات.

فلسطين: أمهات حزينات، وأمهات سعيدات.

فلسطين: عمّات يتصلن من الخارج، وعمات لا يتصلن أبداً.

هبطت درج العمارة باكياً ظلمة إخوتي هناك، ومبتسماً لشمس إخوتي هنا.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء هم أبطالي

هم أولئك الذين لا يعلمون أنهم أبطال، ولا يقصدون أن يكونوا كذلك، يعيشون ولا يعرفون، يموتون ولا يعرفون، فالبطولة العلنيّة والمكشوفة مثل الأخلاق.. منظومة تفكير متفق عليها غير عادلة، صفقة شرٍّ بين أطراف مشبوهين. الأم العظيمة التي تعجز عن النوم؛ لأن شهية أكبر أبنائها لم تكن على العشاء كما يجب. الشخص الذي يموت بشكل عابر في الطريق برصاصة لم تكن تقصده، وحين يصل الخبر إلى أمه تصيح: «أوه، كان ذاهباً إلى عمله في الفرن ولم يكن يحب التظاهرات؛ لأنها تغلق شارع الفرن وتبعد الزبائن عنه»، زبالو المدينة الذين يمر عليهم الناس دون أن يروهم. مجانين المدينة الذين يجوبون الشوارع بخشباتهم دون أن يؤذوا أحداً أو يتمنوا الموت لأحد أو يحسدوا أحداً. المناضل الذي لا يدخل السجن إلا ويعترف على رفاقه، حتى ملّه وكرهه السجانون والمناضلون، وحين قالت له زوجته مرةً وهو يهمّ بالذهاب مع زوّار فجره إلى جولة سجن واعتراف جديدة صرخت في وجهه: «نفسي مرة ما تعترف، أوعدني بس هاي المرة»، فحقق لها ما أرادت، وحين سأله المحققون متعجبين: «لماذا لم تعترف هذه المرة؟»، أجاب بعبثية رائعة: «حتى لا تغضب مني زوجتي، لقد وعدتها»، أم وأب بلهاوان وفقيران ينجبان ويربيان ولداً

Twitter: @ketab_n

وحيداً وذكياً، وحين يكبر ويصبح مشهوراً وغنياً يتخلّى عن أبيه وأمه ويهرب إلى بلاد بعيدة، ويدّعي هناك أنه عاش يتيماً في كنف أسرة غنية. الصحافي السكير (في فيلم أميركي شهير نسيت اسمه) الذي لا يحبه لا القراء ولا الزملاء ولا رئيس التحرير ولا زوجته ولا طفله، لكنه على الرغم من كل هذه الكراهية ينقذ في اللحظة الأخيرة ــ عبر تحقيقاته التي تتضارب مع أدلة الشرطة ــ مسجوناً بريئاً من الموت، لكن هذا لا يغيّر البتة من الكراهية المحيطة به من كل جانب، وحين يمرّ من أمامه هذا المسجون ذات يوم بالصدفة لا يعيره الصحافي اهتماماً حتى نكاد نظنّ ــ نحن مشاهدي الفيلم ــ أنه لم يعرفه، وكأنه يقول له: ماذا يعني أن أنقذك من الموت، فأنا فقط كنت أعمل تحقيقاً صحافياً ناجحاً. الصديق الذي يتخلّى عن حبيبته؛ لأن صديقه الحميم يعشقها مثله، المرأة التي تتخلّى عن حبيبها؛ لأن صديقتها تعشقه. نادلو المقاهي الشعبية المبتسمون باستمرار على الرغم من تعب النهار وقسوة صاحب المحل، ونداء أطفالهم الجوعى. الصديق الذي استشهد صديقه قبل عشرين عاماً وما زال يحضر له وردةً، كل ثلاثاء، كما وعده قبل الرحيل بلحظات. الشجرة التي تكبر رويداً رويداً فقط فائضةً بظلالها الصامتة فقط لتحنو على عرق عابر سبيل لا تعرف اسمه. الشتاء الذي يأتي مجنون الصوت وحريف الرائحة وشرس الملمس فقط ليلبي رغبة عاشقين ليركضا تحته، أو ليسقي حقلاً من القمح لينمو القمح فيبيعه صاحبه الفلاح الفقير لتجار حبوب المدينة الجشعين، فيصبح سهلاً شراء دراجة لطفل الفلاح الوحيد، وتصبح الحياة ممكنةً. سمكة تركض إلى فم حوت تلبيةً لمنطق جيناتها الحمقاء وبلاهتها الطبيعية المقررة سلفاً. شاعر يصارع السرطان ويسأل مع آخر أنفاسه عن نصّه الأخير إن كان قد نشر في المجلة أم لا. غزال يركض بسرعة جنونية حفاظاً فطرياً

Twitter: @ketab_n

على حياة منحها، وهرباً من معدة طاحنة لنمرٍ مُنح هو الآخر الحق الفطري في الهجوم على لحم الغزال. بنت من ذوي الاحتياجات الخاصة تقبّل الهواء وتستمتع بصوت القبلات متوهمةً أن شخصاً يحبها يقبلها كأمها القاسية أو أبيها الميت أو خالها الذي لم يقرر له أن يوجد في الحياة. شجرة اللوز التي تغيب عن الوجود وهي تقول لصاحبها: «سامحني لأني سأتوقف عن الإزهار عدة أشهر لكني سأعود، انتظرني أرجوك». بنت تحب شاباً من طرف واحد، لا أحد يدري بهذا الحب سوى اثنين، هي وحبّها، تنقل البنت رسائل الشاب الذي تحبه إلى حبيبته التي يحبها، تنقلها وهي تتظاهر بالفرح له ولها، وفي الليل ــ في نصفه تماماً ــ تذبح البنت يدها من النبض إلى النبض، فيفاجأ الشاب بالحادث ويشرع في التفكير في بنت أخرى تنقل له الرسائل، وتحزن حبيبته وتتأسف قائلةً له: «كانت بنتاً لطيفةً قالت لي إنها تعتبرك أخاها وإنها سوف ترقص في عرسنا بكل نبضات جسدها». هؤلاء هم أبطالي، هؤلاء هم أبطالي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

امرأتان في عقلي

الأولى نحاتة والثانية كاتبة، الأولى اسمها (كاميل) والثانية اسمها (زيلدا)، الأولى أحبّت نحاتاً كبيراً هو (رودان) والثانية أحبت روائياً كبيراً هو (فيتزجيرالد)؛ فكان حبهما الكبير قاتلاً لموهبتهما الكبيرة، الأولى فرنسية والثانية أميركية، كلتاهما شقيقة لروحي، كلتاهما بلا كلل تتجول بتعب في عقلي وتعيث جمالاً في قلبي منذ أشهر عديدة، كلتاهما أنا بشكل ما أو بآخر، كلتاهما تعرضت للخداع وذاقت مرارة التخلي، كلتاهما أحبت بكل طاقة الحب على الحب؛ فانكسرت الطاقة وتحطم الحطام على الحطام، كلتاهما استُخدمت كملهمة ثم ألقيت على قارعة الوقت، كلتاهما تعرضت إبداعاتها للسرقة من المحبوبَين الشهيرَين، فقد شاركت كاميل في نحت المنحوتة الشهيرة (القبلة)، لكن المنحوتة عرفت كعمل عبقري لـ رودان، وسرق فيتزجيرالد بعض شخصيات وأفكار ومواقف كتابات زيلدا، كشف عن ذلك بعد سنوات طويلة من رحيل زيلدا في العام ١٩٤٨، كلتاهما ماتت في المصح بعد سنوات طويلة من الحجز، كلتاهما ماتت في الأربعينيات من القرن الماضي، الأولى بسبب حريق في المصحة، والثانية بسبب حريق آخر اسمه الهرم. كلتاهما نُسيت هناك، في المصح.

Twitter: @ketab_n

شقيق كاميل وهو الشاعر الشهير بول كلوديل، خجل من وجود شقيقته هناك، وزارها فقط ثلاث عشرة مرة، خلال ثلاثين عاماً. كلتاهما لم تعرف الأخرى، ولم تلتق جسداً، لكن أرواحهما التقت في السماء بعد ذوبان الجسد في حريقي المصحة والشيخوخة، وتبادلت الخيبة والألم والمعلومات.

ضحكتا كثيراً حين عرفتا أن الناس في بلادهما كانوا يسمونهما: المعتوهتين. يا للصدفة المعتوهة!. بالصلصال والشمع والرخام، نحتت كاميل منحوتاتها، التي كانت تعرض في معرض رودان، وكأنها جزء من عالمه وذهنه، لم تكن كاميل تتألم أو حتى تنتبه إلى ذلك ما دام محبوبها العجوز رودان الذي يكبرها بربع قرن يحبها وينتبه إليها.

زيلدا كتبت القصص والروايات واليوميات، وكان محبوبها الروائي الوسيم السكّير الشهير يسطو على عالمها، ينهب الفكرة والشخصية والكلمات، وكانت هي تسكت، أليس عالمهما واحداً، وجسداهما واحداً وذهنهما واحداً!؟ فما دام يحبها فكل شيء يذوب في مهب الحب. فيما بعد وهي تذوي في المصح، تذكرت زيلدا كيف كانت طيبةً بإفراط لا لزوم له، لكنها كانت تذكرت، أيضاً، أن الحب هو العته الجميل بإفراط الذي له كل اللزوم، حين يندلع.

زيلدا، وكاميل، أجمل معتوهتين في العالم، أعرفهما كما أعرف زميلتين ثانويتين، لي معهما ذكريات، ولهما معي أسرار، أحببتهما كأختين وعشقتهما كامرأتين، وأعجبت بهما كفنانة وكاتبة، وأمضيت ليالي شاتماً النحات والروائي، اللذين ضحكا عليهما واستهلكاهما جسداً وإلهاماً لموضوعات وأفكار، وباعوهما للنسيان. كرهت الحب: مدمر المواهب. امرأتان في عقلي، امرأتان في مصح عقلي، لا تتعبان من التجوال في أروقة روحي، أنا الذي ولدت بعد رحيلهما بعشرين عاماً تقريباً.

Twitter: @ketab_n

في معرض رودان، ربيع العام ١٩٩٨، بينما كنت أتجول هناك، مبهوراً ومسحوقاً أمام جمال منحوتة (القبلة) الشهيرة لـ رودان، كنت أرى دون أن يرى معي أحد صوت كاميل وهو يهب في عينيّ: زياد، انتبه ليديّ، هل تراهما؟ انظر، كم أنا أجمل المعتوهات. غرقت قبل أسابيع في رواية (غاتسبي العظيم) لـ فيتزجيرالد، وهو غرق ثالث، كنت أشم صوت زيلدا وهو يمشي باتجاهي واهناً قائلاً: يا زياد، بارك رائحتي المسروقة هنا وتحسس خرس حبري.

امرأتان في العقل، امرأتان في الجمال المعتوه. امرأتان في الحب الساحق والمسحوق.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أصابع ناجي العلي

وإذا كان لا بد من موت الرسامين، فلابد من استثناء أصابعهم من موتهم، تخيّلوا أصابع ناجي العلي وهي تتجوّل بعد موته، في المدن العربية المعذّبة، تضمد جرحاً، تصافح فقيراً، تشير إلى قاتل، تحذّر من لص، تفضح مؤامرةً، تغني للحرية والحب والجمال.

ناجي، المتوقع هو أن نقول: إننا نحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، وحين نفكك أفق هذا الاحتياج، نضحك على أنفسنا ونحن نكتشف أننا نحتاجك في كل الوقت؛ لأن لوقتنا اسماً آخر هو «حالة الطوارئ الوطنية الدائمة»، إننا نحتاجك يا جميلنا، وجملَنا في الوقت الذي مضى والذي يمضي الآن والذي سيمضي.

المعتاد هو أن نقول: إننا نشتاق إليك، وحين نفكك أفق هذا الشوق، نكتشف أننا في الحقيقة لا نشتاق إليك، إلاّ إذا كان الإنسان يشتاق إلى عينيه اللتين يراهما في المرآة كل صباح.

في تراثنا الفلاحي الفلسطيني، ثمة جملة مكونة من حرف نداء ومنادى باللغة

Twitter: @ketab_n

الحميمية، تخاطب المرأة الفلسطينية بها أبناءها أو أحفادها أو أبناء إخوتها وأخواتها حين تنادي عليهم أو تريد لفت انتباههم لشيء أو ترد على استفسار لهم.

أيوا يا عيني، كيف حالك يا عيني، أعملك غدا يا عيني؟. مؤثرة هذه الجملة، دافئة، وصادقة حد البلاد البعيدة.

أريد أن أخاطب ناجي العلي بهذه الجملة، أريد أن أتخيله ينادي عليّ من غرفة أخرى، وحين لا أسمعه بوضوح أهرع نحوه وأخاطبه: «أيوا يا عيني يا ناجي، شو حكيت»؟

أحب ناجي العلي، كـأن فاطمته أختي أو خالتي، وكأن حنظلة أنا، وأن من يكرههم ويفضحهم لصوص سطوا على بيتنا وقتلوا أبي وأختي، أُحسني على صلة قرابة عائلية معه، كأنه يكون ابن عم أبي مثلاً، كـأن يكون قد تغدى معنا بامية بلدية، ذات ظهيرة على سطح بيتنا في المخيم، مع عدد من رجال العائلة، كأني سمعته يتحدث مع أبي، ابن عمه، ذات جلسة حنين، عن بئر البلد العميقة التي سقط فيه كثير من أطفال البلد، وعن بحر يافا القريب، وعن ستي ناعمة التي كانت تقف على باب بيتها، تراقب تحركات الإنجليز: فتصيح بأعلى صوتها: «يا إخوتي يالعصابية، هاي الإنجليز جايين، اتخبوا». وعن «الكامب» / المعسكر الذي أقامه الإنجليز في بلدنا بيت نبالا، وعن رأس جدي خليل العجيب الذي لم تنزل منه قطرة دم على الرغم من الحجارة التي تتساقط عليه في معارك العائلات الدامية. أظن هذه الهواجس ليست هواجسي وحدي، كل من أحب ناجي أحس بها ومارسها.

صدقوني لا أعرف إن كانت قد حلّت هذا الأسبوع ذكرى رحيل ناجي أم ذكرى

Twitter: @ketab_n

ميلاده. أكتب عن ناجي اليوم لأقول: إنني أرى أن رسومه قد ساهمت في ربيع الثورات العربية. كما ساهم سرد غسان كنفاني وأشعار محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وراشد حسين، هؤلاء المقروؤون والمحبوبون جداً وجيداً في العالم العربي، لابد أن الشعوب العربية خزّنت طاقة عوالمهم الإبداعية، واستلهمت منها غضبها ورؤاها الجمالية الثورية، وإيمانها بعدالة قضاياها، هكذا تعمل الفنون، ببطء شديد، تتسرّب إلى وعينا ودم كبريائنا، تفعل ما تفعله دون ضجيج ودون بلاغة وصراخ، تغفو هناك بعمق، ثم تنهض، تفرك عينيها وتغادر، لكنها لا تغادر بالضبط، إنها تترك خلفها آثار نومها من رائحة وصوت وملمس وحركة.

أسمع صوت ناجي من غرفة مجاورة.

«أيوا يا عيني يا ناجي، هل قلت شيئاً»؟.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ضرورة أن توجد هذه المرأة ضرورة أن يوجد هذا الكاتب

عليها أن تكون ليكون، هذا الإنسان الفريد من روحه، والـمضرّج بالجراح واللعنات والـمنفى، عليها أن توجد هذه الـمرأة في حياة كل كاتب، لا إمكانية لعدم وجودها، تماماً كما على هذا الكاتب أن يوجد من أجلها، لا سبيل لعدم وجوده، ليكون ولتكون، عليها أن تفهم أنه شيطان يائس حزين، عليه أن يفهم أنها متطلبة بريئة وشقية، على الاثنين أن يفهما أنهما اختيرا من قبل قوى كونية خفية ليكونا الشاهدين على ميلاد رقصات وشهقات نبيذ اسمه الفنون. على العالـم أن يفهم أنهما حبيبا الحياة والفنون؛ إذ بغير قصتهما النازفة لا وجود لفنون، الفنون لا تزدهر ولا تتنفس إلاّ في وحول الاضطراب والانكسار والارتباك، على الناس الرائعين الـمتألـمين من أجل دموع وحظ السيدة الـمركزية الكبرى أن يوجدوا لتكون هي ويكون هو، عليهم أن يحرضوها على تركه، عليه أن يغضب، لأن تركها له يعني ترك الوتر للعازف في لحظة انفجار موسيقي شامل، عليها أن تسخر منهم، عليها أن تبكي وتعبّر عن عجزها عن تبرير حبها له، فالحب مثل الـموسيقى والأطفال والشجر لا تبرير لسحرهم.

Twitter: @ketab_n

عليه أن يلهث خلف كل لـمعان ابتسامة من امرأة تمر على شباك عينيه، عليها أن يجن جنونها، عليه أن يعتذر ويبكي وينهار ويندم ويقعد على عتبة الباب في البرد والظلام منتظراً أن تصفح عنه، عليها أن تفعل ذلك في النهاية، عليها ألاّ تعرف لـماذا صفحت عنه، عليه أن يتراجع عن ندمه أمام لـمعان جديد لسحر جديد من امرأة أخرى تمر، عليها أن تعترف أنها تعبت، وملت ولكن عليها، أيضاً، أن تعرف أنه لا إمكانية لترك هذا الجرح الشهي والراقص والـمفتوح أبداً أبداً. وعليه أن يعرف أن حياته دون هذه الـمرأة الـمنتظرة الغاضبة الـمتقلبة على نار مغامراته، هي أجمل وأدفأ حرائقه، عليها أن تفهم أنه لعنتها وخطؤها الـمبهر ونافذتها العسلية وطفلها الذي لا يكف عن الجوع، عليه أن يفهم أنها ملجؤه ومتكأ دموعه ومربط بحر قلبه ومصب أنهار أسئلته، عليها أن تفهم أنه سؤال كبير يتطلب أجوبة كبرى لا وجود لها في جماليات ثنائية الحب والكتابة، عليه أن يعرف أنها متاهة برونزية تتطلب خيوط (أريان) التي لا وجود لها في دنيا شبق الفن والأحلام، على أولئك الذين يحرضونها على تركه أن يعرفوا، كم هم ضروريون ليكتمل سؤال الـمتاهة، متاهة ظاهرة غير مفهومة يطلق عليها اسم الحياة، متاهة لا يعبر إليها إلا عبر الفنون أغرب الوسطاء وأطيب الأنبياء.

Twitter: @ketab_n

الخيبة في أربع لوحات

١

تتأخر خطوات أبي عن الاقتراب من باب بيتنا؛ فأتأخر عن النوم. منذ طفولتي وأنا أنام على وقع آخر خطوة من خطوات أبي الذي كان يسهر كثيراً في المقهى. حتى هذه اللحظة، لحظة الاقتراب من الخمسين، أظل مبحلقاً في السقف بانتظار خطوات أبي التي تتأخر كل يوم دون أن تجيء، فأركز وعيي في ذكرى صوت الخطوات، وأنام بعد تعب مخيالي شديد، أظن أنني وجدت حلاً: سأستأجر خطوات رجل فقير، أدربه على أسلوب قدمي أبي في الغناء، يأتيني في ساعة محددة، يخطو باتجاه بابي، يطرقه طرقةً واحدةً، ثم يمشي هو إلى بيته؛ لينام طفله المبحلق في السقف على خطواته، كما أفعل أنا تماماً.

٢

نمل غزير يخرج الآن من لوحة المفاتيح، من بين شقوق أحرف الطباعة تحديداً، بينما أفكّر في طباعة فضفضاتي الصباحية لا أستطيع التوقف، ثمة كلام يجب أن أكتبه لكنني، أيضاً، لا أستطيع أن أكون قاتلاً للنمل، تلك الكائنات التي أحبها.

Twitter: @ketab_n

كلما طبعت حرفاً قتلت نملةً، كلما نطقت كلمةً سحقت فراشة، تلك هي الكتابة: حياة على جثة، ذلك هو الكلام: ميلاد على موت، فلتسامحني النملات الميتات، على أسطح حروفي المدماة، فلتسامحني فراشاتي التي قتلتها بالكلام، منذ جئت إلى هذا العالم.

٣

العجوز التسعينية النحيلة، شبه العمياء، التي تطل علي بوهن من درج منخفض أمام بيتها الصامت بشدة، بينما أمر من أمام بيتها صباح كل جمعة، سألتني السؤال نفسه عشرات المرات: «يا ابني، في سيارات بمشوا اليوم في الشارع»؟.

العجوز لا تنتظر مني إجابةً، كما اكتشفت فيما بعد، فقط تريدني أن أقف، وأنظر إليها، وأقول لها صباح الخير.

وقفت مبتسماً كعادتي، نظرت إليها، قلت صباح الخير. ومشيت. خلفي تظل كلماتها الدافئة تتدحرج حتى أسمعها ترتطم بباب بيتي: «الله يرضى عليك، يسعد صباحك، يا ابني، الله يحفظك ويخلي أولادك، الله يربحك وينجحك، الله يسهل طريقك».

كم من كلام دافئ من مسنين ومسنات آيلين وآيلات لفناء قريب، يتدحرج بحزن خلف المارة دون أن يدروا، حتى يستريح جثثاً عند أبواب بيوتهم.

افتحوا أبواب قلوبكم وبيوتكم لكلمات الوحيدين والوحيدات الدافئة الحزينة.

لا يحتاجون - يحتجن سوى إلى وقفة قصيرة في شارع، نظرة صغيرة، تحية صباح مقتضبة، حتى يكون يومهم - يومهن جميلاً، وذا معنى، أكثير هذا؟

Twitter: @ketab_n

٤

في مركز لتأهيل أطفال الاحتياجات الخاصة، بينما كنت أزور أختي، لاحظت صبية في الخامسة عشرة من عمرها، تروح وتجيء ضاحكةً بشكل هستيري في الممر وتطلق من فمها أصوات قبلات موجهة إلى الفراغ، حين حاذتني استوقفتها وسألتها: لمن تطلقين قبلاتك يا صغيرتي؟ فنظرت إليّ نظرات مخنوقة مذهولة ومضت دون كلام، سألت المرشدة عنها، فقالت لي إنها تقبل نفسها، فأمها قاسية وأبوها ميت، مضيت إلى بيتي، ورحت في الطريق أطلق في الهواء قبلات كثيرات متوسلاً للهواء أن ينقلها إليها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثـم أغمضت عينيها واستيقظت

على حافة حوض نوافير الطيرة أجلس، كل مساء، جلسةً صغيرةً، ربما هي استراحة حالم في طريقه إلى يافا، منذ سبعة وأربعين عاماً وأنا أذهب إلى يافا. آه، كم أريد أن أصل إليها!.

في الحياة والكتابة والعلاقات العاطفية والشطح الوجودي دائماً أصيح: «إياكم والوصول؛ لأن الوصول هنا مذبحة للدهشة ونهاية للشغف».

في السفر اليومي إلى يافا، أريد فعلاً هذه المرة أن أصل؛ لأن الوصول إليها بداية للدهشة وعرس للشغف، يافا ليست قصيدةً أو امرأةً، إنها مدينتي وحقي وكرامتي.

ما الذي يفعله كهل في أول الليل، قرب حوض نوافير؟ أتساءل أنا والناس وهم يرونني من داخل سياراتهم وهي «تلف» حول دوار النوافير، حين ينظرون إلى حيث أنظر بتحديق يشبه الفكاهة، يهمسون: آه يافا، فأشكرهم في سري لأنهم عرفوا، بالحدس أو ببعض تحليل. كنت أنتظر بنتاً اسمها هلا ومدينة اسمها يافا، هلا اليافاوية اللاجئة، قالت لي: خذني إلى يافا. ولاحظت أنها أغمضت عينيها واستيقظت، ولأنني

Twitter: @ketab_n

عاجز بخجل عن الوصول إلى يافا، فقد أقنعت نفسي بأن يافا ستتحرك من مكانها وتتقدم تجاهي، أليس على المدن المسروقة من شعبها أن تتصرف في انتكابات كهذه؟.

ستأتي يافا بعد قليل، تجلس معي قليلاً ثم تعود إلى بيتها البحر، سأعزمها على العشاء في «شقيرة» القريب، وسنمشي قليلاً في شوارع رام الله، ونزور ذكريات الناس عنها، قد نثمل في «زرياب»، ونبكي في «الجلزون»، ونحتار ونغضب أمام «بيت إيل»، ونجن أمام المقاطعة، لن تفهم يافا كلمة «مقاطعة» سأحاول أن أفَهِّمَها بكل حمولاتي من لغة ومكر وتاريخ، لكنها لن تفهم، ستقول لي زياد: «لو سمحت احكي فلسطيني»، ستبقى عاجزة عن الفهم، وستخفي وجهها بيديها، تبكي أو تضحك، أو تخجل. يافا في متناول وجعي، جالساً فيها وأمامها، وبانتظارها، ومطلاً على ذكرياتي التي لم تحدث هناك بعد، ما زلت أجلس بالقرب من النوافير، حدّقت في ذروة إحدى النوافير الصاخبة طويلاً، لاحظت أن شكل وقوة القمة يختلف في كل اندفاعة، لم يكن اكتشافاً علمياً، لكنني أدركت لحظتها أن هذه النوافير التي خلفي ليست نوافير، إنها اندفاعات روحي وتموجاتها وهي تواصل سفرها المستحيل إلى قلبها: يافا. ولم يكن ثمة بنت اسمها هلا، كانت يافا نفسها، تلعب معي لعبة التحولات.

Twitter: @ketab_n

شتاء يجلس في غرفتي

تذكُر الأساطير الإغريقية لـ (ديدالوس) أنه أوّل من حاول الطيران في التاريخ، مستخدماً جناحين من شمع؛ فتحمّس ابنه (إيكاروس) لهذه الفكرة وطار، فاقترب من الشمس أكثر من اللازم، فذاب الجناحان وسقط إيكاروس وغرق في المحيط.

أما أسطورتنا معاً فتذكر أنني أوّل من حاول لمس الشمس في العالم، مستخدماً سلماً من ابتساماتك التي أهديتني إياها ذات رضا دافئ عني. وعند أول غضب منك عليّ توقفت عن الابتسام وهوى السلم بي إلى الأرض.

■

فوجئت بها في السوبرماركت تشتري ما أنوي شراءه، وتلبس لون معطفي نفسه، وتبتسم بطريقتي في الابتسام، وتمسك بيدها اليمنى طفلاً يشبه طفلتي التي أمسك بها. هذه المرأة كانت لي ذات سماء قديمة، وكنت لها، لم تعد الآن لي، لم أعد لها. اسمها سماء، اسمي زياد. اشتريت غرضي، اشترت غرضها، خرجنا معاً، دون الطفل والطفلة، اللذين بقيا يلهوان عند رفوف الألعاب، سمعنا أنفسنا ننادي على طفلينا

Twitter: @ketab_n

بأسمائهما: يلا يا سماء، ناديت طفلتي، يلا يا زياد، نادت طفلها، وانشقت فوقنا سماوات الذكريات.

■

منذ برد ١٩٩٦ والشتاء يجلس في غرفتي، فكلما تذكرت معطفك الكحلي الذي نسيته على الأريكة وأنت تركضين خارج البيت لتشاركي في تظاهرة أحداث النفق، وأنا أشعر بالبرد، البرد ومعطفك المنسي نفقاي المسدودان. ومنذ العام ٢٠٠٦ والصيف معلق على حائطي، فكلما رأيت وشاحك الصيفي الأحمر الذي نسيته على السرير وأنت تركضين إلى وسط رام الله لتشاركي في تظاهرة ضد الاحتلال شعرت بلسعات دم وشمس. الشمس الجهنمية ووشاحك حريقاي الأبديان، سيدة شتائي وصيفي: كفى.

Twitter: @ketab_n

المشي على سطح قصيدة

... جوعك المفاجئ الذي جوّعني على الفور، البطاطا المقلية (من مطعم ترويقة) في منتصف الليل، تذمرك من سرعة التهامي شرائح البطاطا، وتلميحك ضاحكة إلى سرعة قذفي، أحاديثنا السخيفة في السيارة، (كلانا يعرف أنها طريقتنا الجميلة الغبية في خنق أحاسيس ما) رغبتي السرية في عض إصبع يدك الصغيرة وهي تضلل مقود السيارة وتخدع يدك وعينيّ والطرقات، النوم الذي يغادرك لأيام، صداعك السافل المستمر، وحديثك الهاذي عن صاروخ أكل طفولتك ذات قصف، حالاتك السبع التي تعيش داخلك، ترنحي السعيد بين حالاتك وغناي الداخلي في التنقل فيما بينها، مشيك غير المتوازن على سور ضريح محمود درويش وصراخ الحارس عليك وطلبه مني أن أنزلك (نزّل بنتك يا زلمة) وضحكك، ضحكك الشلاّلي على فكرة أنك ابنتي، صوتك وهو يغني: أنا أمشي على سطح قصيدة لمحمود فلا تخافوا، لا تخافوا. صراخي عليك: انزلي انزلي. غضبك الباكي المخنوق من صراخي، غضبك الذي يشبه لعبة طفلة، غضبك الذي لم ينته حتى اللحظة: ليش صرخت عليّ؟ ليش؟ ليش؟. فرحي الغريب بغضبك، وتوهمي أنه ليس غضبا تماماً، هو عجز أنثى عن الفهم: إنت ليش بتحبني ليش؟.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

... روحك التي من إنهاك وانتهاك

أحب فكرة أنك تجلسين مثلي في غرفتك وحيدة حد الغضب على عيد، لا يشبه نفسه.

أحب ولعك المفاجئ بكأس عرق تعبينه عبّاً، وتعترفين لي في خضمّه، أني أشبه رجلاً لن تحبيه.

أحب فكرة بكائك المباغت في عرس ابن عمك، وضحكك المعتوه في جنازة خالتك.

أحب كتفيك المثقفين حين ينام عليهما كتاب، ولا أحب الكتاب.

أحب فكرة أن القميص الأبيض، الذي اشتريته لك من حيفا لم يعجبك، وأنك أخفيت عني ذلك لحساسية رجل من برج السرطان.

أحبك باطنيةً لدرجة أن تشدك حد الرقص قدم قذرة لطفل عار في صورة التقطها سائح بدين، في بقعة أرض إفريقية تقع خارج الزمن.

أحب حلمك بالتجوال في مدن العالم، تتحرشين بعيون شعراء ومغني (التروبادور) في حي غجري فقير بإسبانيا الهائلة، ولا تكترثين بنار السيجارة وهي تحرق إصبعك، وثيابك... .

Twitter: @ketab_n

أحبك هكذا، تماماً هكذا، هدامةً وغير مسماة وترحالية وغير موجودة وخالية من كل شيء سوى باريس في الثلاثينيات، وصورة انتحاري فلسطيني وقعتِ في حب عينيه الزرقاوين، الذاهبتين في رحلة انغلاق أخيرة، وصوت الليل في النهار، وفكرة قطار تائه سيمر من غرفتك، وقصص غسان كنفاني، وحلم الوقوع في غرام جاك كروياك، والموسيقى.

أحبك هكذا، بعينين عاهرتين، ويدين ملطختين دوماً بالحبر والغضب والوعود، وشجار وبكاء متواصلين مع الأم، وحذاء رخيص، وعطر ثمين مسروق من حقائب سيدات فارغات، وموقف صلب من التطبيع، وولع غريب بتاريخ فرقة الحشاشين، وعضات متكررة في الخاصرة، وعشق لجمال عبد الناصر، وستيانة من ماء، وحديث متحمس ودائم عن شخصيات (بيسوا) الوهمية التي يكتب باسمها، وقلب من أطفال، وإعجاب بروايات الإسرائيلي عاموس عوز، وروح من إنهاك وانتهاك.

Twitter: @ketab_n

وتذكرت أني فلسطيني

ليلة أمس، تذكّرت في الحلـم أنني فلسطيني.

حين صحوت، فوجئت بجسدي، مقسوماً إلى قسمين، جلس نصفاي كل في زاوية من زوايا غرفتي ـ الفقيرة والصغيرة ـ ينظران إلى بعضهما بغضبٍ وتحفّزٍ، نصفي الأعلى رشق الأسفل بأذنٍ، ردّ عليه الأسفل بعظمةِ ساقٍ، كنت أتفرّج عليهما حزيناً حائراً لا أدري ماذا أفعل.

الـمفجع أنني عجزت عن رشف فنجان قهوتي الصباحي؛ فكلـما رفع نصفي الأعلى يده لرشف القهوة، رماه نصفي الأسفل بربلة ساق، أو إصبع قدم؛ فتندلق القهوة على النصفين.

إلهي، أكان يجب أن أتذكّر أنني فلسطيني؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جدو زياد . . .

ما نوع الورد الذي كان يحبّه جدو زياد؟ سأل حفيدي شادي ابنة عمه وزوجته ريم، بينما كانا ذاهبين لوضع الورد على قبري في الذكرى الثلاثين لرحيلي، لم يكن جدو يعرف أنواع الورد، كل وردة عنده اسمها وردة. ضحكت ريم، وكيف عرفت ذلك؟ في كتاب يومياته كتب ذلك، أنسيت أن أبي ما زال يحتفظ بدفتر يوميات جدي غير المنشور! وماذا كتب جدي في اليوميات؟ عن مواضيع شتى، حبه الكبير لامرأة لا يعرفها أحد، تناقضات شخصيته، هزيمته النهائية أمام ضعف عضلة قلبه، وحنينه لأصدقاء كثيرين سبقوه إلى الغياب، حبه الغريب للأطفال، وضعفه أمام مطالبهم، هوسه بروايات قرأها أكثر من مرة مثل (آنا كارنينا) لتولستوي، و(الريح القوية) لإستورياس... وحديثه بفرح وحماسة وإسهاب عن انطباعات الناس وانطباعاته عن ثورات فلسطين واليمن ومصر وليبيا وتونس وسورية وباقي الدول العربية، ويقول مثلاً في إحدى الفقرات إنه ظل سنوات طويلة يشعر بندم لأنه لم يلتزم بوعده الذي كتبه على صفحته (الفيسبوكية) لأصدقائه بالرقص عارياً تحت المطر، حين سقط نظام حسني مباركي، تقصد حسني مبارك؟ آه آه، معك حق، حسني مبارك، آنذاك،

Twitter: @ketab_n

لم أكن أنا وأنت قد وجدنا في هذه الحياة، كان ذلك منذ زمن طويل، تتحدث مناهج مدارسنا وكتب التاريخ بزهو عن ثورات شعبية عارمة وضعت فيها شعوبنا العربية حداً للطغاة بعد سنوات طويلة من الذل والظلم. تخيلي مثلاً أنه كان ممنوعاً على الناس السفر إلى الخارج بحجة غريبة، هي أنهم يشكلون خطراً على أمن البلد؟ هل أنت جاد في ما تقول؟ أقسم بالله أنني جاد. تخيلي مثلاً أن بعض هؤلاء الرؤساء كان قد أمضى في حكمه أكثر من ثلاثين عاماً! وأن القضاء لم يكن مستقلاً، بل كان ملحقاً بأجهزة الأمن، وأن سجين الرأي كان يختفي عن الوجود بمجرد دخوله السجن، وإن كتبت له الحياة، كان يعذب تعذيباً شديداً، ويمضي أربعين عاماً، مثلاً، دون أن يعرف أهله أين هو؟ وأن لا أحد كان يستطيع أن يكتب مقالاً ينتقد فيه أصغر مسؤول في دائرة حكومية، وأن صور الرؤساء كانت توضع بشكل إجباري في المكاتب الحكومية، وأن الناس كانت تجبر على الخروج في مسيرات احتفالية بعيد ميلاد أو زواج أو تنصيب الرؤساء، أرجوك أن تتوقف عن السخرية مني، لالالا أنت تبالغ يا زوجي العزيز، أمعقول هذا؟. كم هو خيالك مضحك؟

وصل حفيدي وابنة أخي إلى قبري، وقفا صامتين، وضعا الورد الذي لا أعرف نوعه، ثم غادرا سريعاً، فحفيدي يجب أن يكون في بيروت لحضور حفل زواج صديقه متري على صديقته آمنة، هذه الليلة، والقطار الذي يمر من رام الله في طريقه إلى القدس، فعمان فدمشق، فبيروت، قادماً من رأس الناقورة، مروراً بحيفا وجنين سيصل خلال دقائق.

Twitter: @ketab_n

حمامة بيضاء بعمق

كانت هناك... كنت أعرف أنها ستكون هناك! المرأة الخمسينية القصيرة والبدينة، بشعر قصير وبنطال وقميص أسودين، رأيتها (كنت أعرف أنني سأراها) بين حشد الشباب والشابات، في دوّار المنارة برام الله، الذين تجمعوا لإنهاء الإعاقة في الروح الفلسطينية، كانت تهتف وتلوّح بعلم فلسطين، لا أحد يعرف اسمها، هي لا تعرف اسم أحد، منذ عشرين عاماً وأنا أراها تهتف في التظاهرات، وتسير في الجنازات، بصمت تبكي، مع شبح ابتسامة صغيرة، وعلم خفّاق، لا تكلّم أحداً، لا أحد يكلّمها، تذهب بعد التظاهرة أو الجنازة وحدها إلى مكان غير معروف، فكرت كثيراً أن أتبعها؛ لأعرف قصتها، كنت أخجل، وأتراجع.

في بداية الانتفاضة الثانية، رأيتها عبر شاشة التلفاز مع ثلة من النسوة، كانت تولول بحرقة معهن، وتلطم الخدود، أمام قبر الشهداء الجماعي في حديقة مستشفى الشيخ زايد برام الله، فيما بعد سألت عنها حارس المستشفى، فقال لي إنها لا تمتّ إلى الشهداء بأيّة صلة قرابة، وإنها غريبة الأطوار، تنبع فجأةً من مكان ما، ثم تختفي فجأة، لا تكلّم أحداً، لا تحمل في يديها سوى حفنة دموع لامعة وعلم وإشارة النصر

Twitter: @ketab_n

وشبح ابتسامة، فقط تبكي وتهتف وتلوّح بعلم ثم تختفي.

في تظاهرات النفق الدامية، في العام ١٩٩٦، كانت هناك حول الجرحى تبكي وتلوّح بعلم، وترفع شارة النصر للجنود البعيدين. في مواجهات الانتفاضة الأولى، كنت أراها هناك على دوار المنارة نفسه الذي وقفت فيه مساء أمس، تهتف والعلم لا يفارق يدها، وشارة النصر لا تفارق يدها الثانية، الغريب أنها لم تهرم، لم يثرثر الزمن مع هيئتها وملامح وجهها بامتلائه الدائري الأبيض، وقامتها القصيرة وملابسها السوداء، ثابتة هذه المرأة في وجه الزمن، لا تتزحزح، الكل يتزحزح إلا هي، يتجاوزها الزمن إلى آخرين، فيتعشّى على ملامحهم، ويشرب ألقهم ويكتفي بهم، مساء اليوم رأيت المرأة التي سامحها الزمن، بين الشباب، تنشد نشيد (موطني) وتكاد تتلاشى هياماً بالكلمات والإيقاع، والدلالات، وقفت قبالتها تماماً، أبحث عن التقاء قصير بين عيوننا... عيناها لا تلتقي بعيني أحد، هائمة في ملكوت الهتاف المحرر، وسحر الأغاني الوطنية، لاحقت نظراتها، كنت أريد أن أقول لها بعيني إني أعرفها منذ عشرين عاماً، هذه المرة، سألاحقها إلى آخر أمكنتها، إلى مستقرها الأخير، كان مطر ناعم يسقط فوق أغاني ورؤوس الشباب وفوقها، المطر يزداد كلاماً، الاعتصام ينفضّ رويداً رويداً، تسرب المكان إلى خارجه شاباً شاباً، رأيتها (مصعوقاً وغير مصدّق) تلف العلم بطريقة عسكرية وتحشوه في عينها اليسرى، ثم تخلع شارة النصر من يدها وتحشوها في عينها الثانية، هل رأيت ماذا فعلت هذه المرأة الغريبة؟ سألت هذا السؤال لشخص بجانبي لا أعرفه، دون أن أنظر إليه، فأحسست به ينظر إلي باستغراب وملحته من طرف عيني المصوبتين نحو المرأة، يمضي بعيداً عني، مشت امرأة العلم وعلامة النصر نحو دوار الساعة، مبتسمةً وبدينةً وقصيرةً جداً، الآن أنا أتابعها بخوف وخجل،

Twitter: @ketab_n

هبطت شارع متنزه رام الله، بالقرب من جدارية الأسرى رأيتها تقف، قليلاً، تنظر إلى الجدارية دون أن أتبين ملامحها، إذ إن العتمة وبعد المسافة منعاني من تفحص هيئتها: هل كانت تبكي أم تبتسم، أم لا هذه ولا تلك؟ مجرد صمت أعمى، واصلت طريقها وواصلت طريقي خلفها، انعطفت يميناً، فانعطفت، يا له من شارع هادئ كأنه مفصول عن شوارع المدينة، أو كأنه حلمها، دخلت حديقة بيت قديم جداً، جلست تستريح على كرسي بلاستيكي أبيض، هدوء عارم كان يهز المكان، كانت تنظر للشجر مبتسمة، رأيت عصافير دوري كثيرة تحلّق فوقها ثم تجلس فوق رأسها، بشكل عمودي، المشهد كان غريباً حقاً، يشبه حلماً أو لوحةً أو رؤيا: امرأة تجلس في حديقة هادئة بجانب غرفة قديمة، على رأسها تقف عشرات العصافير، عصفور يقف فوق عصفور. أنهت العصافير كرنفال الوقوف غير المفهوم، دخلت المرأة الغرفة، سمعتها تغلق الباب بمفتاح سميك، تسللت خلفها، وقفت وراء نافذة غرفتها الوحيدة، لم تكن هناك، رأيت فقط حمامة سمينة، وبيضاء بعمق، تجلس على أرض الغرفة القشية، أين ذهبت المرأة؟ رأيتها بأم عيني تدخل الغرفة، والباب أمامي لم ينفتح بعد دخولها، جلست على الكرسي الأبيض، لم يكن هناك أثر للعصافير، شعرت بالبرد، وضعت يدي في جيبي بحثاً عن دفء ما، ارتطمت يدي بورقة، أخرجتها وقرأت فيها بخطي أسماء نساء لم أفهم أو لم أفكر في فهم دلالات وجودها مع بعضها البعض، ولم أتذكر سبب كتابتي لها، على الرغم من حديدية ذاكرتي. مشيت إلى البيت، ريح قوية باردة تهب، ومطر يسقط بثقل كأنه غضب أو رضا ما، رحت أفكر في الأسماء الواردة في الورقة: أم سعد، جان دارك، أم مكسيم جورجي، جميلة بوحيرد، امرأة العصافير... .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذكريات وغضب وأشجار

١

أجمل المناظر المقدسة والملائكية التي شاهدتها عيناي في حياتي، مشهد طفل صغير يطل برأسه باكياً من سيارة والده المارة ببطء من جانبي، كأنه يوزع شتائمه ونقمته على الشوارع، التقت عيناي مع عيني الناقم الصغير، أخرجت لساني له مناكفةً، فازداد وجهه دموعاً وكراهيةً لي وللعالم، لكني حين تظاهرت بالتعثّر بحائط محل تجاري، انفجر وجهه ضاحكاً مشعاً، هذا الانتقال السريع من البكاء إلى الضحك سحرني، إلهي، كيف أنسى ذلك الوجه الصغير الضاحك المنفجر من طين الغضب؟.

٢

في القطار المسرع ذات ظهيرة بعيدة جلست قبالتي مباشرة عجوز إسرائيلية، كنت أنظر إلى الخارج مبتسماً، وبين الحين والآخر أسترق النظر إلى وجه العجوز المستغربة من ابتسامتي البلهاء التي لا معنى لها حسب وجهة نظرها، إذ من الذي في الخارج

Twitter: @ketab_n

أبتسم له، ومن يبادلني الابتسام؟ لم تكن العجوز تعرف أني أتبادل الابتسام مع قطار الأشجار الفلسطينية التي تسير جنباً إلى جنب مع قطارنا، كنت أجدّد مع أشجار بلادي عهد الحب المقدس.

٣

هو زميلي في الصف الخامس، ضخم الجثة، كان لقبه عنتر الصف، لا أحد يجرؤ على مجرد التفكير بمصارعته، الصف كله أعلن الولاء له، حتى المعلمون تجنبوا الاحتكاك به، ثلاثة عقود مرّت، كبرنا جميعاً، مات نصف معلمينا، صرت أنا كاتباً، صار هو فدائياً، البارحة مررت عنه، ابتسم ماداً يده ليصافحني، فوجىء بي أرفع يدي على وجهي بشكل آلي تجنباً لضربته. كان يظنني أمزح، لمحت في عينيه لمعان دموع، لكني لم أصدّقها، واصلت طريقي مبتعداً عنه، متعثراً بالذكريات والمارة.

Twitter: @ketab_n

إلى طالب ثانوي أحبه

إن لم تخاصم أهلك مرتين أسبوعياً على الأقل، فاعرف أنك في مأزق، نم في العراء إن لزم الأمر، وإن لم يلزم، اشتم في علنك سور المدرسة، والطابور المتكرر، وقلم أستاذ اللغة العربية الأحمر، واعتذر للنشيد الوطني الذي مللته، شاهد مسرحيات كثيرة، وبل في شارع عام، واضحك حين يشتمك شرطي أو تاجر أو رجل دين، اقرأ ديستوفسكي وبوكوفسكي كثيراً، أو اكرههما كثيراً، لا فرق، المهم أن تعرف لماذا تكرههما ولماذا تحبهما؟ جرّب الإحساس بدبيب النمل على ساعدك، واصغ إلى جوع الكلاب القريبة، وابتسم لهدير دوريات الاحتلال، لأنها تذكّرك بفلسطينيتك التي تفقدها رويداً رويداً، في خضم الفوضى الكونية العارمة في روحك، ثم عد إلى البيت، إلى دموع الأم، تحديداً إلى وجبتها الشهية التي أعدّتها لك في الخفاء، قل لها: حر جداً أنا، لكني أحبك يا أمي. وتلصّص على سعال الأب الطيب في غرفة نومه، اطرق الباب بهدوء ونم على كتفه: أحبك يا أبي لكني سأظل أنا.

افعل كل ذلك، أو لا تفعل كل ذلك. المهم أن تعرف لمَ تريد أن تفعل كل ذلك، ولمَ لا تريد أن لا تفعل كل ذلك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يد برتقالية

كان يحدثُ وأن يفصلها بهدوء عن ساعده الصّلب، وهو مستلق على ظهره، ويسلّمها لي أياماً، موصياً إياي بشدة: «دير بالك عليها يا سيدي إوع تجرحها» ويغفو، طويلاً يغفو جدّي، كانت يده بمثابة لعبتي وتميمتي وجائزتي وحكايتي وسرّي، أقدّمها لأصحابي في الحارة ليصافحوها بهيبة، مندهشين من عروقها النافرة وتجاعيدها القاسية، في الليل وبعد نوم العائلة، أنهض، أسحبها من تحت الوسادة، أحكّ بها خدّي، أعضها متذوقاً طعماً غريباً قريباً من طعم بحر ورمل وسمك، أتحسس أصابعها الخشبية بدماملها المتيبسة، فأشعر بذلك التنميل اللذيذ في جسدي كله، في الصباح أضعها في حقيبتي المدرسية، وفي الصف بينما المدرس يحكي لنا عن برتقال يافا، أُدخل خفية يدي في الحقيبة، وأتحسسها متضامناً مع دماملها ومربتاً على عروقها، فأفاجأ باختفائها ووجود حبة برتقال في حقيبتي، تعوّدت على ذلك، وصرتُ كلما اشتهيت البرتقال استعرتُ يد جدي لأيام طويلة، لم يكن أحد يعرف سر البرتقالة واليد، إلى أن فاجأتني أمي وأنا أتناول مثل ساحر برتقالة من عيني اليسرى، ارتعبت أمي، فحكيت لها الحكاية لكنها لم تصدّق، واكتفت بإخبار جاراتنا عن طفلها البرتقاليّ العجيب وعن

Twitter: @ketab_n

ساحر البيت الغامض، في ليلة ما تذكرتُ تحذير جدّي لي: «إوع تجرحها يا سيدي»، فاهتاج داخلي فضول قاتل، أحضرتُ سكيناً من المطبخ، غرستُ رأسها المدببة في إصبع اليد الصغيرة، فانفجر في وجهي عصير البرتقال الفادح.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يوم غريب وحافل بسوء الفهم: شاب شجّ رأسي بحجر ظاناً أني شخص آخر، في غرفتي بالمشفى صافحتني بحرارة عجوز ظانةً أني ابن (عايشة، «أم عمر»). بنت أحبها، قالت لي: «أظن أنك لست حبيبي، أنت أحد الذين أحبهم».

يد جاري تكاد تخنقني فيما أنا عائد إلى البيت ليلاً: «يا رجل، فكرتك حرامي، ليش متأخر هيك؟».

طفل مع أمه في الشارع مشيراً نحوي: «ماما، هاي بابا»، مكالمة من رجل لا أعرفه: «كيفك يا خميس؟ بعت العمارة ولا لسه؟».

الوحيدان اللذان لم يسيئا فهمي هذا اليوم، هما: أمي وهي تتحسس وجهي: «ليش وجهك تعبان هيك يمّا؟». وجندي إسرائيلي سمين وقصير، على حاجز احتلالي: «وقّف على الحيط، دير ظهرك، وارفع قميصك».

ISBN 978-6589-09-132-5
9 786589 091325

الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2013